البيان في مراحل وعناصر خلق الإنسان
الروح .. النفس .. الجسد .. الحياة
والعلاقة ما بين القلب والعقل

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١٢م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٢/١/٢٤٠)

٢٤٤,٩
الزغول، راتب عبد الرحيم
البيان في مراحل وعناصر خلق الإنسان / راتب عبد الرحيم الزغول . ـ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٢.
(١٧٦) ص
ر.أ.: (٢٠١٢/١/٢٤٠).
الواصفات: / خلق الإنسان // الإسلام /

❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E- mail: daralmamoun@maktoob.com

البيان في مراحل وعناصر خلق الإنسان

الروح .. النفس .. الجسد .. الحياة

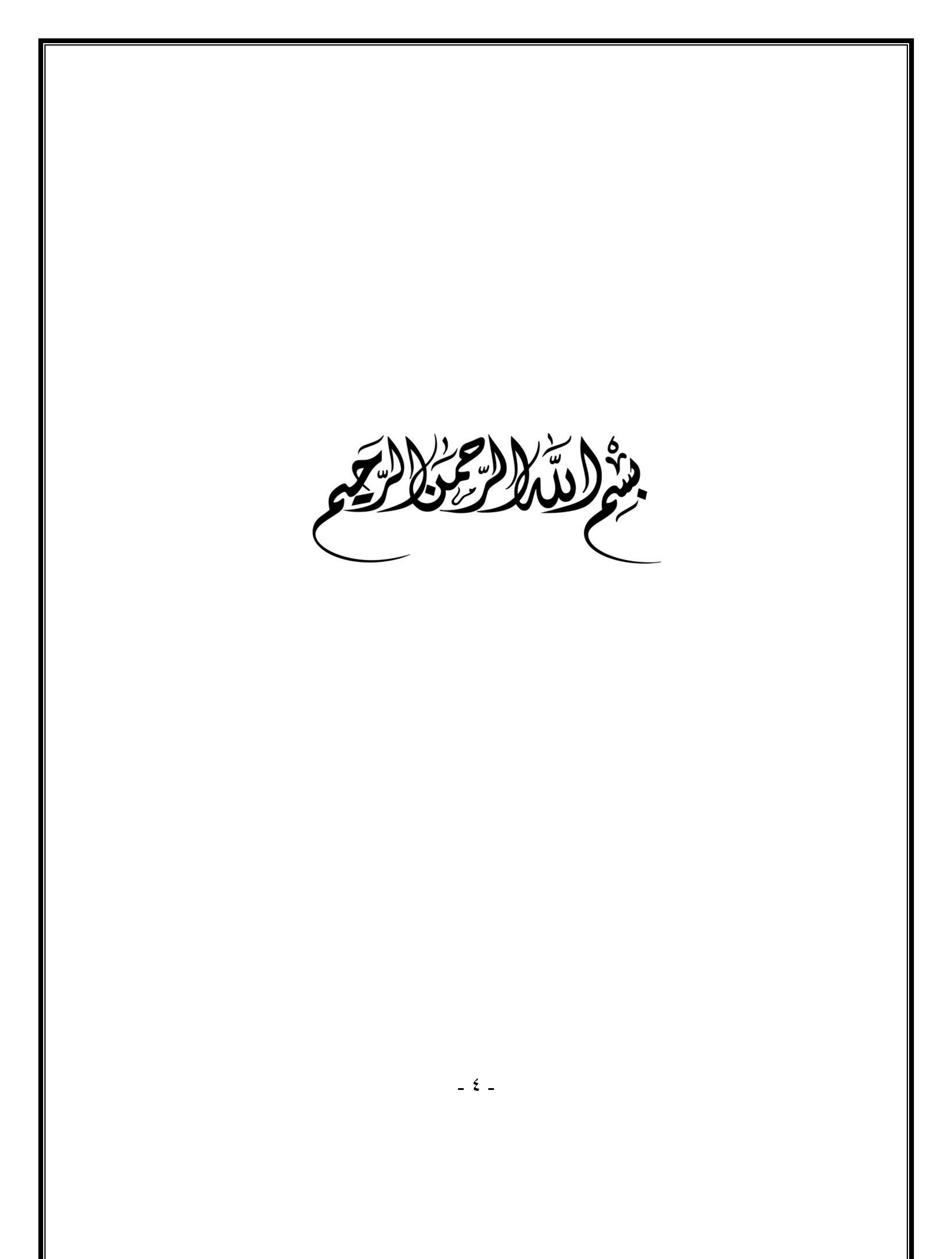
والعلاقة ما بين القلب والعقل

تأليف

أبي عبيدة : راتب عبد الرحيم الزغول



دار المأمون للنشر والتوزيع

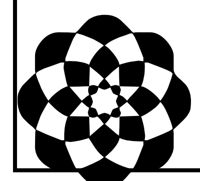

بسم الله الرحمن الرحيم

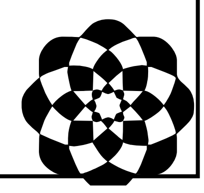
الإهداء

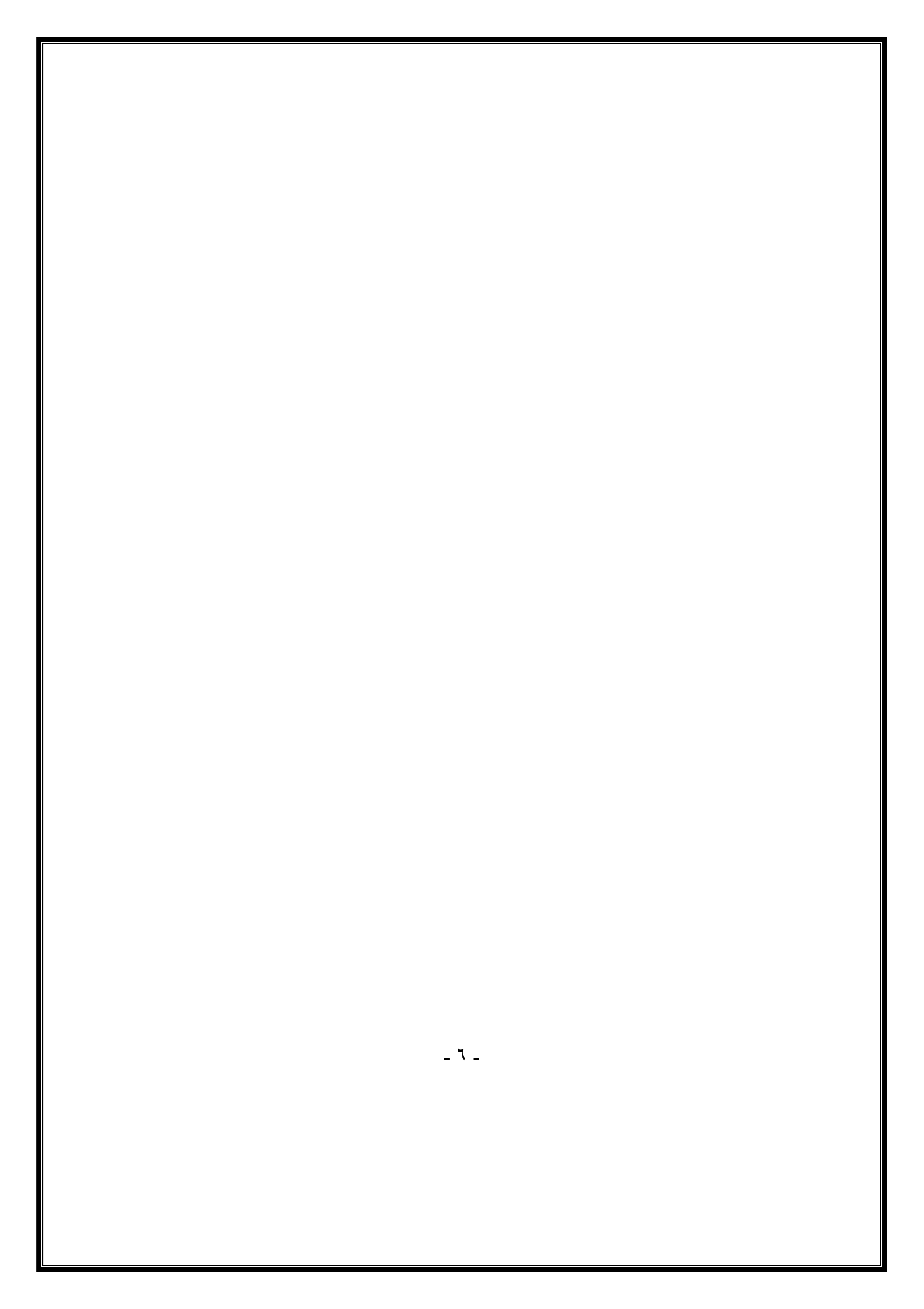
- إلى أطفال غزة .. إلى شهداء ... مهات والأخوات في غز...
- إلى كل الشرفاء والمجاهدين في فلسطين وفي العراق وفي أفغانستان وفي الشيشان وفي كشمير وفي كل مكان ..
- إلى الذين يدافعون عن شرف الأمة وكرامتها .
- إلى الذين سقطوا دفاعاً عن بيضة الإسلام وعن حياض هذه الأمة وعزتها وكرامتها.
- إلى الذين يحملون هم الأمة في قلوبهم..

أهدي هذا الكتاب عرفاناً مني بالجميل وأقول لهم: امضوا ولا تترددوا فأنتم على الحق المبين، أنتم طلائع الحق في هذا الزمن العصيب وأنتم الذين أنرتم الدرب بدمائكم الزكية التي ستثمر الحرية والعدل والخير إن شاء الله، وسوف تمهد لأمتكم السير على الطريق الذي أنرتموه بدمائكم الزكية .

وصدق الله العظيم القائل في محكم التنزيل : ((**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم صادقين**)) ، اللهم فرج عن هذه الأمة فرجاً قريباً عاجلاً وانصر المجاهدين في سبيلك وثبت أقدامهم وانصرهم على القوم الكافرين وعجل بنصرك الذي وعدت يا أكرم الأكرمين آمين آمين آمين .







المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الرحمة المهداة للعالمين النبي الأمين سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه وصحبه الطاهرين وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد .. فقد قدر لي مولاي سبحانه وتعالى أن أخوض غمار هذا البحث الشائك وأن أبحث في أمر الروح والنفس والجسد والعقل والقلب ، أو بالأحرى مقومات وجود الإنسان ، وربما كان السبب الذي دعاني لذلك هو حب الاطلاع والمعرفة لهذه الأمور وبيانها وتفصيلها بعد أن لم أجد ما يشبع نهمي بهذا الموضوع ، لذلك قمت بجمع بعض الكتب لعلمائنا الأفاضل الذين سبقوني بطرق هذا الباب لتساعدني في ذلك ، وحاولت جاهداً أن أبحث وأتقصى من خلال القرآن الكريم وآيات الذكر الحكيم وما ورد في هذا الأمر من أحاديث رسولنا الكريم محمد ﷺ إلى أن وصلت إلى قناعة تامة بأنه لا بد لي من خوض غمار هذا الموضوع الشائك الدقيق علني أقدم فيه شيئاً جديداً .

لذلك قررت بعد التوكل على الله تعالى أن أكتب فيه راجياً من المولى سبحانه وتعالى أن يلهمني الصواب وأن يجنبني الخطأ وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن يجعله في ميزان حسناتي فإن لم يكن فيه جديداً ومفيداً فعسى أن يكون فيه بصيصٌ من نور قد يأخذ به غيري فينميه ويزكيه للأجيال القادمة مشعلاً يستضاء به ، أما فيما يتعلق بهذا الكتاب فقد قمت بالبدء بتأليفه في بداية العام ٢٠٠٤ ميلادي وتم الانتهاء من تأليفه بحمد لله تعالى في بداية الشهر التاسع من نفس العام وقد قمت بإجازته من دائرة المطبوعات والنشر الأردنية بتاريخ ٢١/ ٦/ ٢٠٠٥ م ، إلا أنني عدلت عن نشره لأسباب كثيرة منها حساسية المواضيع التي تطرقت إليها خوفاً من الوقوع في المحذور ولأنني أنشغلت بتأليف كتاب آخر ولأسباب أخرى ، إلا أنني وبعد هذا الوقت الطويل عدت لمراجعة الكتاب وإعادة النظر في مضمون ما جاء في بعض الأبواب وتمحيص وتعديل ما احتاج منها إلى ذلك إلى أن استقر رأيي على

وجوب نشره على هذا الشكل الذي هو عليه الأن بعد أن أصبح عندي قناعة تامة بأن الكتاب لا يخرج عن نطاق الدعوة والتذكير ، والتفكير المنطقي والبحث عن الحقيقة ضمن الأسلوب الذي لا يتنافى مع الشرع الحنيف ، فما كان من صواب وحق فهو بتوفيق من المولى سبحانه وتعالى قد هداني إليه ، وما كان من خطأ وغلو فهو من نفسي واستغفر الله تعالى عليه ، راجياً منه تعالى التوفيق والقبول وأن يجعله سبحانه وتعالى في ميزان حسناتي يوم القيامة ، والحمد لله رب العالمين .

الروح

ما هي الروح ؟ للروح أكثر من معنى كما جاء في معاجم اللغة العربية ومنها ، الروح: ما به حياة النّفْس (يذكر ويؤنث) .

وقالوا : الروح هي النّفَس وجمعها أرواح وتطلق على القرآن وعلى الوحي ، الروح الأمين وروح القدس : جبريل عليه السلام ،. أما الروح في الفلسفة : فهي ما يقابل المادة . وفي الكيمياء هي الجزء الطيار للمادة بعد تقطيرها كروح الزهر وروح النعناع [1] .

أما الروح التي أريد الحديث عنها فهي أحد عناصر تكوين الإنسان وهي ذلك السر الإلهي العجيب الذي أودعه الله سبحانه وتعالى في جميع مخلوقاته ، فالروح عالم قائم بحد ذاته وهو سر الله سبحانه وتعالى في خلقه ، ونحن لا نعلم عنها إلا القليل مصداقاً لقوله تعالى في محكم التنزيل بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥] .

يستطيع الإنسان أن ينحت إنساناً أو حيواناً أو طائراً وبشكلٍ متقن ولكن هل يستطيع البشر أن يجعلوا من ذلك النحت ذا حياه ؟ والجواب على ذلك بالطبع لا ، ولن يستطيع البشر ولو اجتمعوا أن يخلقوا عصفوراً ولا حتى ذبابه مصدقاً لقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣ – ٧٤] . وقال تعالى : ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾ [لقمان: ١١] .

---

(١) المعجم الوسيط ١/ ٣٨٠ .

قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [الرعد: ١٦] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأحقاف: ٤] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾[النحل: ١٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[النحل: ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥] .

قبل أن نبحث في ماهية الروح لا بد لنا أن نتحدث أولاً عن آدم عليه السلام وكيف تم خلقه وكيف تم استخلافه على الأرض قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١ – ٧٢] .

لقد شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يضيف إلى المخلوقات التي كانت قائمة وهي الملائكة ، والجن المتمثلين بإبليس صنفاً آخر من المخلوقات وهو الإنسان فسواه سبحانه وتعالى بيده من طين ، وهذا الطين هو المادة التكوينية أو المادة الخام التي تمثل الجسد ، ثم نفخ فيه سبحانه وتعالى من روحه فإذا هو خلق تام .

من هنا نستطيع أن نتعرف على الروح ألا وهي تلك النفخة الربانية التي تجعل الحياة تدب في المخلوقات ، وعليه فلا يمكن أن تكون هناك حياة دون وجود تلك النفخة المباركة ، وهي فقط من اختصاص الله سبحانه وتعالى ومن أمره .

فبعد أن نفخ الله تعالى الروح في آدم عليه السلام تم إيجاد خلق آخر من مخلوقات الله سبحانه وتعالى ألا وهم البشر . ثم أوجد سبحانه وتعالى من هذا الإنسان زوجه وهي حواء التي خلقها الله تعالى من ضلع آدم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١] ، ولحديث رسول الله ﷺ: " استوصوا بالنساء

خيراً فان المرأة خلقت من ضلع وان اعوج ما في الضلع أعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته وان تركته لم يزل اعوج فاستوصوا بالنساء " [١] .

ثم مر على ذلك الخلق أحداث كثيرة ، فاسكن الله سبحانه وتعالى هذين المخلوقين آدم وحواء الجنّة ، ثم أكلا من الشجرة التي نهيا عن الأكل منها بسبب وسوسة الشيطان لعنه الله ، ثم اخرجا من الجنة ونزلاء إلى الأرض وتم التزاوج بين الاثنين ومن ثم الإنجاب ، فكانت حواء تحمل في كل بطن ذكر وأنثى فيتم تزويج ذكر البطن الأول من أنثى البطن الثاني إلى أن تكاثرت الذرية وأصبحت على ما هي عليه الأن من تعدد الأعراق والأنساب كما جاء ذلك مبسوطاً في كتب التفسير .

فما هي المراحل التي يمر فيها هذا الخلق من البداية إلى النهاية ؟ معلوم أن كل خلق قد جعل الله سبحانه وتعالى منه زوجين ذكر وأنثى على جميع المستويات ، حتى على مستوى الذرة وهي اصغر ما في الكون والتي برهن العلم الحديث أنها تتكون من زوجين ، الإلكترون والنيترون ، السالب والموجب ، الليل والنهار ، السماء والأرض ، المشرق والمغرب .. إلخ ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩] .

وعليه فان لكل خلق طرفين من الذرة وهي اصغر ما في الكون إلى السماء والأرض، فهي جميعها يجمعها شيء واحد مشترك وهو الزوجية ، والشيء الوحيد الذي لا يندرج تحت هذا الأمر هو وحدانية الله سبحانه وتعالى ، لأن الله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد ، ولذلك جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ والذي رواه الإمام مسلم " إن الله وترٌ يحب الوتر " وكذلك هي أسماء الله الحسنى سبحانه وتعالى فردية لما ورد في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ "

---

(١) متفق عليه رياض الصالحين ١٢٣ ح ٢٧٣ ولمسلم ١٠/ ١٤٩ .

إن لله تسعاً وتسعين اسماً مائه إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة " وزاد همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ " انه وترٌ يحب الوتر "(1) .

إذاً فكل شيء نشأ من زوجية أو من زوجين أو من طرفين باستثناء الواحد الأحد سبحانه وتعالى وما اختصه لنفسه .

وهنا لابد من البحث في كيفية وجود الإنسان بواسطة التزاوج بعد أن بينّا كيف تم خلق آدم عليه السلام .

أولاً الزواج :

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١] . لقد جعل الله سبحانه وتعالى من هذه النفس زوجها ، وليس ذلك فحسب بل جعل بين هذين الزوجين المودة والرحمة وسبحان الله العظيم القدير ، فهناك الكثير من الأزواج لا توجد بينهما أي نوع من روابط أو صلة القربى وقد يكون أحدهما من المشرق والآخر من المغرب ، وقد يكون بين قبيلتيهما عداوة إلا أن المودة والرحمة التي جعلها الله سبحانه وتعالى بين هذين الزوجين تجعل بينهما رابطة قوية تكون في كثير من الأحيان أقوى من رابطة الدم فسبحان الله العظيم .

بعد الزواج يتم الاتصال الجنسي بين الزوجين والذي يكون سبباً للإنجاب فما هي المراحل التي يمر بها الطفل منذ الاتصال الزوجي بين الزوجين إلى أن يتم الإنجاب ؟

هناك طرفين في المعادلة التكوينية والتي يتم بواسطتها تكوين إنسان جديد ، الطرف الأول هو الزوج وهو الذكر الذي يقوم بإنتاج الحيوانات المنوية والطرف الثاني هو الأنثى

---

(١) مسلم ١٧/ ٦ .

والتي تقوم بإنتاج البويضة ، والحقيقة التي يجب أن لا نغفل عنها هي أن هذا الإنتاج نطلق عليه مجازاً بأنه إنتاج لأن الحقيقة التي يجب أن لا نغفل عنها هي أن هذا الإنتاج مشروط ومقيد ، أي انه ليس إرادياً يتعلق بإرادة المنتج ذكراً كان أو أنثى لأن الحقيقة إن هناك خالق قادرٌ عظيم يشاء لما كان أن يكون مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٨ – ٥٩] . بل أنت يا بديع السماوات والأرض ! ....

فإنتاج المني من الرجل والبويضة من الأنثى لا احد يستطيع إنتاجه بقدرته ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يشاء ويخلق فليس كل مني يصلح للإخصاب وليس كل بويضة تصلح للتلقيح .

الله سبحانه وتعالى هو الذي يشاء ويخلق قال تعالى : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٤٩ – ٥٠] .

فالحيوانات المنوية التي تنطلق من الرجل بعد عملية الاتصال الجنسي تدخل إلى الرحم وتنتقل عبر قناة فالوب إلى البويضة ، هذه الحيوانات المنوية الموجودة في السائل المنوي للرجل تعد بالملايين يقوم حيوان منوي واحد فقط بالوصول إلى البويضة وتلقيحها .

بعد مرحلة التلقيح تبدأ مرحلة الاتحاد ما بين الحيوان المنوي والبويضة لتكوين الجنين ، هذه هي المرحلة الأولى لتكوين الجنين وهي ما يسمى بالتلقيح فيصبح في رحم الأنثى بويضة ملقحه يطلق عليها في علم الأجنة (النطفة) تلك النطفة تمر بعدة مراحل ، هذه المراحل هي التي ورد ذكرها في القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ

بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ﴾ [الحج: ٥] .

وفي آية أخرى يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٦] .

هذه الآيات الكريمة من القرآن العظيم تصور تصويراً رائعاً مراحل خلق الإنسان .
ففي الآية الكريمة من سورة الحج بين رب العزة سبحانه وتعالى مراحل تطور الإنسان داخل الرحم ثم جاء في نهاية الآية تشبيه حال الأرض قبل وبعد هطول المطر ، فإذا نظرت إلى الأرض قبل نزول المطر عليها تراها هامدة لا نبات فيها ولا خضره كأنها هي ميتة فإذا نزل عليها الماء بأمر رب العزة سبحانه وتعالى تراها كأنها هي تهتز وترتفع وتزكو ، وهذا الوصف هو وصف حقيقي لحال الأرض لأن المطر إذا ما نزل على الأرض اخرج النبات ، وإذا ما خرج النبات من باطن الأرض شق التربة للخروج والنمو فإذا ما نمى حرك جزيئات التربة حوله ، فإذا ما كان النبات كثيراً ازدادت بخروجه حركة جزيئات التربة ، فكأنها الأرض جميعها قد اهتزت لأن النبات بعد المطر يملأ أرجاء الأرض فتزكو الأرض بأنواع النباتات المختلفة . وكذلك هي المرأه فهي أشبه ما تكون بالأرض فإذا ما استقبلت ماء الإخصاب تبدلت وتغيرت فأنبتت من ذلك الماء وأنتجت منه بأمر الله مخلوقاً جديداً ، وكما أن الأرض تنبت من كل زوج بهيج ، كذلك هي المرأة فمنهن من تنجب الأبيض ومنهن من تنجب الأسود ومنهن الأحمر والأشقر ، ومن هؤلاء يأتي العالم والمهندس والطبيب والمفكر والعابد والقائد .

وقد رسمت الآية الكريمة لنا كيفية إخراج الحياة من الموت لأن الأرض الهامدة تمثل صورة الموت ، بينما تمثل الأرض الخضراء صورة الحياة ويقابل هذه الصورةالمستلهمة من الآية الكريمة التي تحدثت عن الأرض وموتها وحياتها صورة أخرى للموت والحياة والتي تمثل إيجاد الحياة من الموت بالنسبة للإنسان أيضاً وتفسر كذلك آية أخرى من القرآن الكريم ألا وهي قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨] . فقد فسر علماء الأمة من السلف الصالح الموتة الأولى التي وردت في الآية الكريمة بأنها مرحلة الإنسان قبل تكوينه وخلقه ، وهذا تؤكده الآية الكريمة من سورة الحج والتي مثلت الأرض قبل استقبالها للمطر بالهامدة ، والأرض الهامدة هي الأرض الميتة التي لا اثر فيها للحياة ، ورغم أن هذا الموت ليس كلياً إلا انه صورة من صور الموت إذا ما قارنا بين الأرض الهامدة التي لا زرع فيها ولا نبات بالأرض الخضراء المزهرة اليانعة ، وكذلك الإنسان قبل إيجاده كان ميتاً إذا ما قورن به وقد أصبح إنسانا مكتملاً ، وذلك لأننا لو عدنا إلى اصل الإنسان قبل وجوده فهو نطفه ، هذه النطفة قبل تكونها هي عبارة عن لاشيء (تتشكل تلك النطف في الخصية من خلايا تقع أسفل الكليتين في الظهر ، وهذه النطف عبارة عن حيوانات منوية) [١] . هذه المرحلة بالنسبة للإنسان تمثل مرحلة الموت أو مرحلة اللاشيء ، ثم أصبح حياً بخلقه جنيناً ثم طفلاً ثم إنسانا مكتملاً ثم يموت موتةً أخرى ويعود إلى التراب إلى أن يبعث حياً عند البعث والنشور .

أما في الآيات الكريمة من سورة المؤمنون فقد تطرقت الآيات أيضاً إلى مراحل خلق الإنسان ووصفتها وصفاً بديعاً ، فقد وصفت الآيات الكريمة مراحل خلق الإنسان والموت والبعث والنشور وصدق الله العظيم القائل في محكم التنزيل : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠] .

---

(١) المعلومات مأخوذة من الانترنت.

أما ما ورد في السنة النبوية الشريفة عن خلق الإنسان ، فقد قال رسول الله ﷺ: " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفه ثم يكون علقةً مثل ذلك ثم يكون مضغه مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه ، واجله ، وعمله ، وشقيٌ أو سعيد فوالذي لا اله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل ألجنه حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل ألجنه فيدخلها " (١) . هذا الحديث الشريف هو مدرسة بحد ذاته لخص مراحل تكوين الإنسان منذ النطفة إلى أن يتم له القدر كاملاً بنفخ الروح وإلى آخر حياة الإنسان ، فمنذ لحظة التلقيح تبدأ مرحلة ألنطفه وهذه المرحلة تمتد لمدة أربعين يوماً وقد ذكر القرطبي في تذكرته أن النطفة تطوف في جسد ألام طيلة الأربعين يوماً .

بعد أن تنتهي المرحلة الأولى تبدأ المرحلة الثانية وهي مرحلة العلقة .

بعد انتهاء طور النطفة وابتداء طور العلقة يستمر هذا الطور أيضاً لمدة أربعين يوماً أخرى ويكون عمر الجنين الذي لم يكتمل بعد هو ثمانين يوماً وبانتهاء مرحلة العلقة والتي سميت بذلك لأنها تعلق بالرحم يبدأ الطور الثالث ألا وهو طور المضغة وسميت مضغة لأنها تكون بحجم اللقمة التي تمضغ من الطعام وهذه المرحلة تستمر أيضاً لمدة أربعين يوماً ليكمل الجنين مرحلته الأولى وهي مرحلة الحياة المرتبطة بروح وجسم ألام ، فخلال هذه المدة وهي مدة مائه وعشرون يوماً وهي أربعة اشهر تامة يكون داخل رحم ألام كتلة صغيره تستمد الحياة من ألام وهذه الكتلة تكون تابعة للام الحامل وهذه هي مرحلة الطين التي لا روح فيها وهي تستمد كل مقوماتها من ألام تكويناً وارتباطاً ، وفي اليوم الأخير من الشهر الرابع تبدأ مرحلة جديدة من حياة ذلك الجنين فيرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح.

---

(١) مسلم ١٦/ ١٥٦ ، ومتفق عليه رياض الصالحين ١٦٣ .

هذه الرؤية وهذا التفسير مأخوذ من خلال المعنى الذي يفهم من هذا الحديث الشريف بهذا اللفظ ، وهذا ما كنت اعتقده بادئ الأمر وهو ما كان يعتقد سابقاً وهو أيضاً ما بنى عليه علمائنا الأفاضل من السلف الصالح الفتوى بجواز إجهاض الجنين قبل إتمام الأشهر الأربعة الأولى من عمره ، إلأ أنني بعد البحث والتدقيق في هذا الأمر رأيت تعارضاً واضحاً ما بين هذا المفهوم وما أقره علم الأجنة لحديث فيما يتعلق بهذا الأمر ، حيث إن الجنين بعد مرور أربعة أشهر على تكوينه تكون قد ظهرت أغلب أعضائه وأنه لا يمكن أن يوصف بعد هذه الفترة بالمضغة مما يعني أن هناك تعارضاً ما بين هذا المفهوم الذي يفهم من الحديث الشريف بهذا اللفظ وبين ما هو مثبت علمياً وبالمشاهدة ، حيث أن الجنين بعد هذه الفترة يكون قد تشكل واكتملت أعضائه وأصبح جنيناً وليس مضغة .

ولأنني أؤمن إيماناً قاطعاً ان الحديث النبوي الشريف لا يمكن أن يخطئ أبداً بحالٍ من الأحوال او يتعارض مع ما أثبته العلم إثباتاً قاطعاً لا يقبل الشك لأنه وحي من عند الله تعالى عدت إلى الحديث الشريف واتضح لي أن لهذا الحديث الشريف أكثر من رواية ومنها قوله ﷺ :(إن أحدكم يجمع خلقه في بطن امه أربعين يوماً نطفة ثم يكون (في ذلك) علقة مثل ذلك ثم يكون (في ذلك) مضغة مثل ذلك إلى آخر الحديث الشريف . وعلى ما يبدو أن بعض الرواة قد أسقط جملة (في ذلك) المكونة من حرف الجر وإسم الإشارة سهواً مما أدى إلى هذا الفهم الخاطئ للحديث الشريف وهذا بدوره يدل على ما أعطاه الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم من جوامع الكلم ويدل أيضاً على أهمية ودقة كل كلمة ترد في الأحاديث النبوية الشريفة .

حيث أدى سقوط هذه الجملة سهواً إلى تغيير كامل لمعنى الحديث فيما يتعلق بالوقت بالذات ، لأن (في ذلك) على الأغلب أو بالتأكيد تعود على الزمن وهو الأيام الأربعين بحيث يصبح مدلول الحديث بهذا اللفظ متماشياً تماماً مع ما أثبته علم الأجنة الحديث ، وكذلك فإن هذه الرواية للحديث الشريف تعطينا المعنى بشكل دقيق ومختلف تماماً

عما هو مفهوم بالرواية الأخرى حيث إن ورود جملة (في ذلك) في الحديث الشريف تفيد المعنى التالي (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون (في ذلك) أي في نفس الزمن أو الفترة أو الأيام المذكورة علقة (مثل ذلك) ثم يكون في ذلك مضغة (مثل ذلك) . وعليه فإن رسول الله ﷺ قد بين لنا في هذا الحديث الشريف إن هذه الأطوار الثلاثة تكون في الأيام الأربعين الأولى من مرحلة تكون الإنسان بحيث تقسم الأيام الأربعين الأولى بالتساوي على هذه المراحل الثلاث وهذا ما نستدل عليه من خلال قوله ﷺ (مثل ذلك) بحيث يكون قوله ﷺ (في ذلك) عائد على الأيام الأربعين وقوله ﷺ (مثل ذلك) عائد على الفترة التي أمضتها النطفة في طورها الأول وهي أكثر من أربعة عشر يوماً وأقل من خمسة عشر يوماً .

وبذلك يرتفع التعارض الذي أشكل ما بين معنى الحديث في الروايتين ويظهر المعنى الدقيق والصحيح والذي يتماشى مع ما أثبته العلم (وقد تكون الروايتان دقيقتان ولكل واحدة منهما استدلالاتها الخاصة، بحيث نفخ الروح في الجنين بعد الشهر الرابع والتي تبدأ الحامل فيه بالشعور في حركة الجنين الفعلية بينما تكون الحركة قبل تلك الفترة هي حركة لا إرادية) والله تعالى أعلم. وسبحان الله العظيم القائل في محكم التنزيل: ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٧] .

لم تتغير سنة الله تعالى في خلقه منذ خلق آدم ولن تتغير إلى قيام الساعة وهذه رسالة إلى علماء الاستنساخ الذين يدعون أنهم قادرون على استنساخ إنسان من خلية بدلاً من النطفة ليتنبه أولئك الذين يحاولون مضاهاة خلق الله تعالى بالاستنساخ . وهنا لا بد لنا من أن نربط ما بين آدم عليه السلام وما بين بقية البشر وإلى قيام الساعة لنلاحظ أن هناك رابطاً مشترك ، فآدم عليه السلام خلق من الطين وهذه هي المرحلة الأولى في إيجاده وهي الطين ، وبالمقابل فالجنين أيضاً في مراحله الثلاث الأولى وهي النطفة والعلقة والمضغة هي التي تكوِّن المرحلة الأولى بالنسبة لآدم ألا وهي مرحلة الطين ، فالطين هو الأصل في تكوين آدم وما دام أن آدم من الطين فذلك يعني أن كل ما تناسل عنه يعود إلى أصله وهو الطين مصداقاً لقوله تعالى :
﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥] .

وهذا هو الرابط الأول ما بين آدم من الناحية الأولى وهي ناحية أو مرحلة المادة ، فالمادة الطينية التي وجد منها آدم يقابلها المضغة التي يتكون منها الجنين من منطلق وزاوية معينة وهي عدم وجود الروح في كلا الطرفين خلال هذه المرحلة ، ثم بعد أن خلق الله تعالى آدم من طين نفخ فيه من روحه هذا هو المقوم الثاني من المقومات وهما الوجود أولاً والحياة ثانيا ، وحتى يصبح هناك إنسان فلابد من وجود لهذا الإنسان وهذا الوجود هو وجود مادي وهو الطين بالنسبة لآدم كما أسلفت والمضغة بالنسبة لذريته من بعده وهذا ما يسمى بالوجود، من هنا نستطيع أن ندرك أو نستنبط لماذا حرم التصوير وبالذات النحت ، لأنك عندما تفعل ذلك تكون قد أوجدت شيئاً لم يكن موجوداً ، هذا الشيء الذي أوجدته لو استطعت أن تركب أو تنفخ فيه روحاً ولن يكون ذلك لأصبح مخلوقاً حياً لذلك حرم التصوير . فقد ورد عن بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ((إن اللذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : احيوا ما خلقتم)) [1] وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((من صور صوره في الدنيا ، كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ)) [2] . وأنا أرى هنا أن التصوير المنهي عنه الذي عنته الأحاديث الشريفه ليس التصوير الفوتوغرافي أو التلفزيوني وما شابهه ، وذلك لأن هذا النوع من التصوير لا ينتج شيئا جديدا لم يكن موجودا إنما هو تصوير لشيء موجود أصلا أي انه تصوير لمخلوق من مخلوقات الله تعالى ، لذلك فإنني أظن والله تعالى اعلم أن التصوير المنهي عنه هو النحت والرسم ، وهذه ليست فتوى إنما هي دعوة لعلمائنا الأجلاء الكرام للنظر بها ، وما ذكرته إنما هو رأي شخصي اعتقده وأضنه ولا اجزم به وكما قال تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم: ٢٨] أما السبب الذي دعاني لرؤية هذا الرأي هو انك في الأولى وهي التصوير قد قمت بتصوير شيء موجود أصلا وهو في الأصل مخلوق من مخلوقات الله تعالى

(١) متفق عليه رياض الصالحين ص٤٩٥ ح١٦٧٨ . ولمسلم ١٤/ ٧٧.

(٢) متفق عليه رياض الصالحين ٥٩٦/ ١٦٨١ . ولمسلم ١٤/ ٧٨.

وبالتالي فانك لم تأتي بجديد ، أما النحت أو الرسم فهو مختلف تماما لأنك بذلك تنتج شيئا غير موجود أصلا ، أي انك أبدعته من خيالك وأوجدته من صنع يدك لذلك يطلب منك أحيائه ولن تستطيع إلى ذلك سبيلا. ثم يأتي الأمر الثاني وهو من اختصاص الله تعالى ومن أمره ألا وهو الروح وسبحانه الله القدير الذي جعل ذلك من قدرته وحده ، فتخيل لو أن الله سبحانه وتعالى أعطانا قدرة الأحياء أو نفخ الروح كما أعطانا القدرة على الرسم والنحت لوجدت هناك مخلوقات غريبة عجيبة لا تعد ولا تحصى ، وتخيل ، لو أن كل من رسم رسماً أو نحت نحتاً أحياه فكيف سيكون الأمر ؟!!!!!!!!!!!! .

الله سبحانه وتعالى هو وحده القادر على الإحياء ، وهو سبحانه وتعالى وحده القادر على نفخ الروح ، حتى الأنبياء الكرام الذين أعطاهم رب العزة سبحانه وتعالى معجزة الإحياء لم يمنحهم ادعائها لأنفسهم ، هو تعالى منحهم المعجزة بحد ذاتها ولكنه لم يمنحهم دعوتها لأنفسهم مصداقاً لقوله تعالى على لسان عيسى ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ٤٩] وقوله تعالى ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي﴾[المائدة: ١١٠] فعيسى عليه السلام أعطي معجزة إحياء الموتى ، وخلق طير من الطين والنفخ فيه ليكون طيراً بإذن الله تعالى ، فمعجزة الأحياء هي من اختصاص الله تعالى لا قدرة لأحد عليها ، وعيسى عليه السلام هو الوحيد من الأنبياء الذي أعطي هذه المعجزة ، وهي معجزة الأحياء كما يروي لنا القرآن الكريم .(ويقال إن الطير الوحيد الذي خلقه عيسى عليه السلام بيده ونفخ فيه من روحه هو الوطواط أو الخفاش)[١].

لاحظ غرابة ذلك الطائر ، فهو أعمى ، وينام معلقا في رجليه ، وأنثاه تحيض وتنجب ، وله أسنان ، وله أظافر ، وجناحه ليس من الريش بل هو من الجلد فسبحان الله العظيم .

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير ٤/ ٩٤ قال : وقيل : لم يخلق غير الخفاش .

أما بالنسبة لإبراهيم عليه السلام فلم يعطى معجزة الأحياء عندما طلب من الله تعالى أن يريه كيفية الإحياء مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. فلم ينفخ ولم يؤمر بنفخ الروح إنما أُمر فقط بدعوة تلك الطيور بعد قتلها وتقطيعها .

أما عيسى عليه السلام فقد ميز بخلقه عن البشر وميز أيضاً بمعجزته في إحياء الموتى ونفخ الروح ، فهو الوحيد من الأنبياء بل ومن البشر الذي أوجده الله سبحانه وتعالى من غير أب وكان من أنثى فقط ، ولكنه لم يتميز عن البشر من ناحيتي الوجود والحياة ولكن عيسى عليه السلام كان استثناءً ليس وحيدا ولكنه مكمل لاستثناءات أرادها الله سبحانه وتعالى ، هذه الاستثناءات هي أكمال لمعجزات تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى ، وهي ثلاث ، الأولى كانت خلق آدم عليه السلام ، فآدم ، أوجده الله سبحانه وتعالى بلا أب وبلا أم ، سواه تعالى بيده ونفخ فيه من روحه فإذا هو خلق تام ، وهذا استثناءٌ واضح وذلك إن آدم عليه السلام هو اصل خلق الإنسان ولم يكن قبله بشر لذلك كان لابد أن يكون وجوده استثناءً ، فوجد آدم عليه السلام من غير أب ولا أم ومن غير ذكر أو أنثى وهذه هي المعجزة الأولى وهي بالنسبة لنا نحن معجزة ، أما بالنسبة لمن بيده مقاليد السماوات والأرض القادر على كل شيء فهي قدرة ربانية . ثم أتت المعجزة أو الاستثناء الثاني وهو إنسان أو أنثى من غير أم وهي أمنا حواء التي خلقها رب العزة سبحانه وتعالى من ضلع آدم فاتت حواء من ذكر بلا أنثى ، وهنا لا بد من وقفه .

ترى لماذا أوجد الله تعالى حواء من آدم ؟ الم يكن سبحانه قادرا على أن يوجدها بنفس الطريقة التي خلق فيها آدم عليه السلام بان يصنعها بيده من طين وينفخ فيها الروح ؟ أو أن يأمرها بالكينونة فتكون ؟ اجل فان الله سبحانه وتعالى قادر على ذلك ، ولكنه مع ذلك لم يخلقها بهذا الشكل بل أوجدها من ضلع آدم ، ولا بد لذلك من سبب وحكمة ، وأرى منها ما يلي ، أولاً : ليجعلها حجة فيما بعد على من ادعوا ألوهية المسيح عيسى بن مريم عليهما

السلام ، وليكمل فيها المستحيلات البشرية الثلاث أو الاستثناءات الثلاث التي لا رابع لها ، وكذلك لتتوافر المودة والرحمة والتقارب ما بين الذكر والأنثى وقد يكون هناك أسباب أخرى غير ما ذكرت . وجاءت الآية الثالثة أو الاستثناء الثالث أو المعجزة الثالثة سمها ما شئت وهي إيجاد عيسى عليه السلام من أم بلا أب أو من أنثى بلا ذكر وبذلك كان عيسى عليه السلام هو الآية الثالثة التي تعتبر بالنسبة لنا بني البشر معجزات لا يمكن حصولها وجاءت كالتالي :

أولاً : ذكر من غير ذكر أو أنثى وهو آدم عليه السلام .

ثانياً : أنثى من ذكر بلا أنثى وهي حواء .

ثالثاُ :ذكر من أنثى بلا ذكر وهو عيسى عليه السلام .

فسبحان الله القادر العظيم. فيا من تدعون ألوهية المسيح أو بنوته لله ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤٣] .

فيا من أبهرتكم المعجـزة الثالثة وجعلتكم تحيدون عن الحق لادعائكم بأنها لا يمكن أن تحدث فقد حدثت بإعجاز اكبر ، وان كنتم ادعيتم ألوهية المسيح أو بنوته لله سبحانه تعالى لما رأيتم من إعجاز في إيجاده فقد حدث قبله معجزتان هما أكثر إبهاراً وإعجازاً . وقد حاج الله سبحانه وتعالى من افتروا عليه بادعائهم في عيسى في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] .

من هنا نستطيع القول إن هذه الاستثناءات أو المعجزات الثلاث هي إثبات لقاعدة معلومة وهي أن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء ، فما استحال بالنسبة لنا نحن بني البشر ، وبالنسبة لقواعد القياس التي نقيس عليها ونعرفها هو بالنسبة لله سبحانه وتعالى غير

مستحيل وغير مستبعد مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص: ٦٨] .

هل تستطيع الصخرة الجامدة الصماء أن تنجب ؟ الأمر بالنسبة لنا مستحيل ولا ينطبق على قواعد القياس لدينا ، أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى فالأمر وارد وبسيط ، فعندما طلب قوم ثمود من نبيهم صالح عليه السلام آية على صدقه اخرج الله تعالى لهم آية ناقة حية من قلب الصخرة الجامدة الميتة ، وهكذا أوجد الله سبحانه وتعالى حيٌ من ميت وليس ذلك فحسب بل حيُ من جماد ناقة من صخره ، لذا فان هناك حقيقة راسخة يجب أن نعلمها علم اليقين ألا وهي إن الأمر المتعلق بإرادة الله سبحانه وتعالى غير مرتبط بقاعدة أو قانون ، ويجب علينا أن لا ننكر معجزة من معجزات الله تعالى أو أن ندع تلك المعجزة تكون سبباً لإشراكنا بالله تعالى ، أو أن ننسب له ما لا يليق بجلاله سبحانه وتعالى ، ويا أهل الكتاب إن كنتم قد استعظمتم أمر خلق عيسى عليه السلام بلا أب وبوجود احد طرفي أو احد سببي إيجاد الخلق وهو الأنثى فقط فان الأعظم من ذلك هو انعدام طرفي أو سببي إيجاد الخلق وهما الذكر والأنثى معاً ، ويرد رب العزة سبحانه وتعالى على من أصروا على شركهم وظلالهم وعلى ادعائهم الباطل المنحرف آمرا نبيه والمؤمنون من بعده ، ومستخفاً بالمصرين على الشرك والظلال والانحراف والطغيان بقوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾[الزخرف: ٨١] .

أي قل لهم يا محمد ﷺ : حتى وان بقيتم على ما انتم عليه من الإصرار والطغيان والشرك والادعاء بان عيسى هو ابن الله فانا أول العابدين لله لأنني اعلم منكم بالحقيقة ، ولأنكم تقولون هذا الكلام لأحد سببين وهما ، إما أن تكونوا قد قلتموه عن جهل وقلة علم وعدم تقدير لله سبحانه وتعالى القادر على كل شيء ، أو أنكم تقولونه كذباً وافتراءاً على الله سبحانه وتعالى ، وآيا كان السبب الذي يدعوكم لقول ما تقولون فانا أول العابدين لله لأنني من العارفين لله ، والموقنين به والمقدرين له حق قدره رغم أنوفكم وادعائكم وشرككم وضلالكم.

المراحل

لكي نتحدث عن الإنسان فلا بد لنا من أن نقوم بتقسيم الإنسان إلى قسمين وهما مراحل، وعناصر. أما المراحل فهي تلك التي يمر بها الإنسان منذ أن يشاء الله سبحانه وتعالى له أن يكون إلى أن يموت ، وهذه المراحل تنقسم إلى قسمين ، اما القسم الأول فهو مرحلة الحمل أو ما قبل الولادة وهي نطفة ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم جنين إلى أن يولد ذلك الجنين طفلاً ، ثم تأتي بعد ذلك مراحل الإنسان ما بعد الولادة والتي يكون أولها رضيعاً إلى أن تنتهي بالكهولة .

أما العناصر فهي أربعة عناصر وهي : الروح ، النفس ، الجسد ، الحياة ، وسوف أتحدث هنا عن المراحل وأوجل الحديث عن العناصر فيما بعد ، وابدأ أولاً بمرحلة النطفة ، فلا بد لكل مولود عدا الاستثناءات التي تحدثت عنها لأنها من صنع الله تعالى فلا تنطبق عليها القاعدة ، وإذ أتحدث هنا فإنني أتحدث عن الأمور الطبيعية التي تتم عبر التزاوج والتناسل المعهود . النطفة في اللغة : هي القليل من الماء وتطلق على ماء الرجل وعليه فإن النطفة هي النقطة المقذوفة واصلها من الرجل وهي نطفة المني المتدفقة من العضو الذكري للرجل [١] وهي عبارة عن سائل ابيض كثيف يحتوي على الحيوانات المنوية وهي ما اصطلح على تسميتها (الحويمنات) وهي أعداد هائلة تتراوح ما بين (٤٠٠ – ٧٠٠) مليون حويمن يقوم أقواها بتلقيح البويضة في الأنثى وكما يقول المختصون : (تحتوي النطفة على ٢٣ كروموسوم صبغي ، منها كروموسوم واحد لتحديد الجنس وهو الكرموسوم (**Y**) أو

---

(١) أما مفهوم النطفة المتعارف عليه في علم الأجنة فالمقصود بـه غالبـاً (البويضـة الملقحـة) وهـي (النظفـة الأمشاج) بالزيجوت (**zygote**) وهي أول مرحلة من مراحل الاخصاب والمتمثلة بثقب الحيوان المنوي لجدار البويضة .

(X) أما البويضة فإن كرموسوم الجنس فيها هو دائماً (X) فإذا التحمت النطفة (Y) مع البويضة (X) فإن البويضة الملقحة (zygote) ستكون ذكراً (X Y) أما إذا التحمت النطفة (X) مع البويضة (X) فإن الجنين القادم سيكون أنثى (X X) [1] .

ولكن علينا أن لا نغفل أبداً أن ذلك يكون بأمر الله تعالى وعليه فإن الذي يحدد جنس المولود هو النطفة وليس البويضة ومعلوم أن البويضة لا تلقح إلا من حويمن واحد فإذا كان هذا الحيوان المنوي مذكراً كان جنس المولود ذكراً بإذن الله ، أما إذا كان الحيوان المنوي مؤنثاً كان المولود أنثى بإذن الله ، وعليه فانه لا علاقة للأنثى أي ألام من قريب أو بعيد في جنس المولود ، والمسئول عن ذلك هو الرجل وهنا لا بد من تساؤل وهو : ما دام أن الرجل هو الذي يحمل الكرموسوم المسؤول عن تحديد جنس الجنين فما هو دور المرأة ؟ ولماذا تكون ملامح الطفل أحياناً تشبه وأحياناً أخرى تشبه الأم ؟ ومتى يكون المولود يشبه أمه ومتى يشبه أباه ؟ .

وبما أنني أعتمد كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ مصدراً ومرجعاً فسوف أجيب على هذه الأسئلة من خلال الأحاديث النبوية الشريفة الآتية محاولاً استخلاص ما تحملة من مؤشرات وأدلة ، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه أن أم سليم حدثت أنها سألت النبي ﷺ عن المرأة ترى في منامها ما يرى الرجل ، فقال رسول الله ﷺ : ((إذا رأت ذلك المرأة فلتغتسل)) فقالت أم سليم : واستحيت من ذلك . فقالت : وهل يكون هذا ؟ فقال النبي ﷺ : ((نعم فمن أين يكون الشبه . إن ماء الرجل غليظ ابيض وماء المرأة رقيق أصفر . فمن أيها علا ، او سبق يكون منه الشبه)) [2] .

---

(١) المعلومات ماخوذة من الانترنت .

(٢) مسلم ٣/ ١٩٠.

من خلال الحديث الشريف في قوله ﷺ ((فمن أيها علا ، او سبق)) نستطيع الإجابة على الأسئلة التي سبق وطرحتها ، وهو أن دور المرأة يكون في تحديد شكل الجنين وليس جنسه ، ونستدل أيضاً من خلال تفس الحديث أن كل من ماء الرجل وماء المرأة يتسابقان ، وقد يرى البعض ان كلمة سباق تعني أنه لا بد للمتسابقين أن ينطلقا من نفس المكان ، إلا أن ذلك ليس الصورة الوحيدة للسباق ، فقد يتسابق اثنان للحصول على شيء واحد وينطلق كل واحد منهما من مكان يختلف عن مكان المتسابق الآخر كما هو الحال في السباق ما بين ماء الرجل وماء الأنثى ، وأن السباق ليس مقتصراً فقط على ماء الرجل المتعلق بالسباق ما بين الحيوانات المنوية ، فقد بين الحديث الشريف أن هناك سباق من نوع آخر بين ماء الرجل وماء المرأة .

أما السباق الخاص بماء الرجل فهو ذلك السباق الخاص بالحيوانات المنوية والذي يفوز فيه الأقوى والأقدر من الحيوانات المنوية وهذا هو الذي يُحدد نوع او جنس المولود ، أما السباق ما بين ماء الرجل وماء المرأة فهو لتحديد شكل وصفات المولود وليس جنسه ، هذا التوضيح هو بعض ما استطعت استخلاصه من الحديث الشريف ، وقد يكون المراد من قوله ﷺ : ((فمن أيها علا ، أو سبق)) يتعلق ببلوغ الرعشة او الذروة ، أي أنه إذا ما بلغ الرجل ذروته قبل الأنثى كان المولود يشبه أباه ، اما إذا ما بلغت الأنثى ذروتها قبل الرجل فيكون المولود يشبه أمه ، ويدل على ذلك أيضاً حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إن إمرأة قالت لرسول الله ﷺ : هل تغستل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء ؟ فقال ﷺ : ((نعم)) فقالت لها عائشة تربت يداكِ . قالت : فقال رسول الله ﷺ : ((دعيها ، وهل يكون الشبه إلا من قبل ذلك . إذا علا مائها ماء الرجل أشبه الولد أخواله وإذا علا ماء الرجل أشبه أعمامه)) [1].

(١) مسلم ٣/ ١٩٣ .

من هنا وبناءاً عليه أستطيع أن أقول إن البويضة لدى المرأة تتأثر تبعاً لعلو أو سبق ماءها أو ماء زوجها وهذا هو المقصود بنزع الولد إلى أبيه أو أمه بأن يأخذ الولد صفات وشكل الأب أو صفات وشكل الأم حسب علو أحد المائين بغض النظر عن جنس المولود ، وهذا بدوره يبين لنا مدلول حديث آخر وهو الحديث الذي رواه الامام مسلم في نفس الباب، وهو حديث ربما أو بالتأكيد أنه قد اشتبه على كثير من الناس أردت أن أورده هنا لأزيل ما قد يشتبه به أو يفسر على غير معناه إو على غير ما يحمل من معنى ألا وهو سؤال أحد أحبار اليهود لرسول الله ﷺ وفيه ، قال : جئت أسألك عن الولد؟ قال:((ماء الرجل ابيض وماء المرأة أصفر ، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة اذكراً بإذن الله وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنثا بإذن الله [(١)].

إن ما يتبادر للذهن من خلال كلمتي (اذكر أو آنثا) الواردتين في الحديث الشريف أنه إذا سبق ماء الرجل كان المولود ذكراً وإذا سبق ماء المرأة كان المولود أنثى . والحقيقة ليس كذلك وذلك لعدة أسباب :

أولها : إن الحديث بهذا المعنى يخالف غيره من الأحاديث الشريفة الواردة بهذا الشأن.

ثانيها : أنه يتعارض مع ما أثبته علم الأجنة الحديث الذي يؤكد أن الكرموسوم الضبغي الذي يحدد جنس الجنين موجود في نطفة الرجل وليس في بويضة المرأة .

وثالثها : إنه قد وردت آية في القرآن الكريم تحدد أن المسؤول عن تحديد جنس الجنين هو الرجل وليس المرأة وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ [النجم: ٤٥ – ٤٦] . هذه الآية الكريمة من كتاب الله تعالى تؤكد أن الذي يحدد

---

(١) مسلم ٣/ ١٩٤ .

نوع الجنين وجنسه ذكراً أو أنثى هي نطفة المني التي يقذفها الرجل ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تناقض الأحاديث الشريفة بعضها بعضاً أو تتعارض مع كتاب الله تعالى او مع ما أثبته العلم إثباتاً قاطعاً لا شك فيه ، وعليه فلا بد من تأويل الحديث الشريف وتفسيره كما ينبغي لإظهار المعنى الدقيق الذي يحمله هذا الحديث ، أما المقصود بالحديث الشريف كما أرى فهو : أنه إذا سبق ماء الرجل وهو الأب ماء الأنثى وهي الأم (اذكراّ) أي كان المولود بغض النظر عن جنسه يشابه الذكر وهو الأب .

أما إذا سبق ماء الأنثى أي الأم ماء الذكر كان المولود بغض النظر عن جنسه أيضاً يشبه الأم ، وبذلك يزول التعارض الذي قد يفهم من هذا الحديث الشريف وعليه فإن السباق ما بين ماء الرجل والمرأة يكون لتحديد ملامح المولود بينما يكون المسؤول عن تحديد جنس الجنين هو الرجل دون إرادة منه طبعاً لأن الإرادة في هذا الأمر تعود لله سبحانه وتعالى ودليله قوله تعالى : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٤٩ – ٥٠] .

وعليه فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي يهب سبحانه وتعالى وهو الذي يشأ وهو الذي يحدد ، ومع ذلك فقد جعل سبحانه وتعالى لكل فعل فاعل ولكل شيء سبب ، وقد خص سبحانه وتعالى الرجل ليكون سبباً في تحديد جنس المولود ذكراً أو أنثى ،

من هنا نستطيع أن نقول أن النطفة التي يبدأ بها الخلق هي ماءٌ من الرجل ، وماءٌ من الأنثى يتسابقان ، وإذا كان هناك سباق فإلى أين يكون ذلك السباق وإلى ما ينتهي ؟ هذا الماء ينتج من كل من الذكر والأنثى نتيجة التهيج والشهوة الجنسية والذي تقوم بإفرازه وإنتاجه

غدد موجودة في جسم الرجل [1] فينطلق ذلك الماء وهو مني الرجل ومني المرأة يتسابقان ، وما دام أن هناك سباق فلابد أن يكون على شيء يختص بالجنين ، فما هو ذلك الشيء الباقي ؟ انه البويضة ، والتي تكون في الأصل من أنتاج الأنثى ، فأيهما سبق الآخر إلى البويضة أعطاها صفاته وصبغها بها ، فإذا ما شاءت إرادة الله تعالى أن يكون هناك مخلوقٌ جديد هيأ أسباب الوجود لذلك المولود .

ويدلنا على ذلك الواقع المحسوس ، لنستيقن أن ذلك ليس بإرادة الرجل ولا بإرادة المرأة ، إنما هو فقط بإرادة الله تعالى والدليل على ذلك انه ليس كل اتصال جنسي بين الذكر والأنثى ينتج عنه حمل حتى وان كان في فترة الإخصاب ، فقد يكون هناك اتصال بين الذكر والأنثى وفي فترات الإخصاب وعلى مدى اشهر وأحياناً على مدى سنوات ودون وجود مانع معلوم يمنع الحمل لا من الرجل ولا من المرأة ومع ذلك لا يتم الحمل .

وكم من الأزواج راجعوا الأطباء وبعد الفحص تبين خلو كليهما من أي مانع يمنع الحمل ومع ذلك لم يتم الحمل، ترى هل وجد الأطباء تفسيراً لعدم حدوث الحمل رغم عدم وجود مانع لذلك ؟ نعم هناك مانع واحد وهو أن إرادة الله سبحانه وتعالى لم تتم بعد ، فإذا شاء القدير أن يتم ذلك حدث الحمل ، فسبحان الله القدير .

إذا شاءت أرادته أن يخلق بشراً من طين هيأ الأسباب لذلك وتم تلقيح البويضة أو إخصابها بواسطة حيوان منوي واحد من الرجل يحدد نوع المولود وبالاشتراك مع ماء المرأة يحدد الصفات الخلقية لذلك المولود فيصبح هناك في داخل رحم ألام بويضة ملقحه وهي ما

---

(١) تتشكل النطف في الخصية من خلايا تقع أسفل الكليتين في الظهر ، والنطف عبارة عن الحيوانات المنوية التي تدخل عبر المهبل إلى عنق الرحم ، إلا أن هناك نطفة واحدة فقط تلقح البويضة قاطعة مسافة طويلة جداً لتصل إلى مكان الإخصاب (قناة فالوب) التي تصل المبيض بالرحم حيث يحدث بعد الإلقاح تغيير سريع في غشاء البويضة ، وهو ما يمنع دخول بقية الحيوانات المنوية إليها بعد ذلك) .

تسمى بالنطفة ، وتستمر هذه النطفة أربعين يوماً كما جاء في الحديث الشريف ((إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة)) هذه النطفة الحية والمكونة من بويضة ملقحة بواسطة حيوان منوي واحد تستقر مدة أربعين يوماً تنتقل خلالها إلى طور العلقة ثم إلى طور المضغة خلال الأيام الأربعين الأولى وهي زاخرة بالحياة رغم أنه لم تنفخ فيها الروح بعد إلا أنها تستمد حياتها من حياة الأم التي تحملها . ثم يقول رسول الله ﷺ : ((ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح)).

من هنا نستطيع أن ندرك أن الأيام الأربعين الأولى من عمر الإنسان هي حياة بلا روح وهذه هي التي تقابل مرحلة الطين بالنسبة لآدم عليه السلام ، وهي نفسها مرحلة تكوين الجسد للإنسان ، وفي هذه المراحل وما يليها من تكوين الإنسان يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٤] .

فبعد أن تتم الأيام الأربعين الأولى يرسل الله سبحانه وتعالى ملكاً مأموراً فينفخ الروح في ذلك الكائن الحي فيصبح حياً ذا روحٍ منفصلة عن روح ألام بعد أن كان حياً بلا روح يرتبط مع ألام في جميع أطواره وقد أطلق علماؤنا الأوائل من السلف الصالح على هذه المرحلة (مرحلة الحياة التي تشبه حياة النبات) ويطلق عليه بعد ذلك اسم جنين ويستمر ذلك الجنين في رحم أمه يتغذى بواسطة الحبل السري إلى أن يتم المدة وهي من ستة اشهر إلى تسعة اشهر ، والأخيرة هي الغالبة ، أما الأولى فمصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ ﴾[الأحقاف: ١٥] . فالفصال هو الرضاعة ومعلوم أن الرضاعة على الغالب أربعة وعشرون شهراً مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] . .

وبما أن الرضاعة أربعة وعشرون شهراً فيتبقى من الثلاثين ستة اشهر وعليه قد يولد المولود وهو ابن ستة اشهر كما استدل على ذلك ابن عباس رضي الله عنهما عندما استشهد بهذه الآية الكريمة في ولاية عثمان رضي الله عنه في المرأة التي أنجبت عن ستة اشهر فأراد أمير المؤمنين أن يقيم عليها الحد فبرأها ابن عباس بالآية الكريمة التي تدل على أن المولود قد يولد وهو ابن ستة أشهر .

بعد إتمام الأيام الأربعين الأولى[١] يرسل الله سبحانه وتعالى الملك الموكل بالأرحام فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتابة أربع كلمات ، مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ : ((ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتابة أربع كلمات اجله ، وعمله ، ورزقه ، وشقي أم سعيد)) وفي هذه المرحلة يقدر على الإنسان قدره كاملاً ، فهذه الكلمات الأربعة هي مجمل حياة الإنسان ، بل هي حياته كاملةً . ثم يستمر الجنين في رحم أمه إلى أن يتم فترة الحمل ثم يولد طفلاً . وقد روى ابن مسعود (إن الملك الموكل بالرحم يأخذ النطفة من الرحم فيضعها على كفه ، ثم يقول : يا رب ، مخلقة أو غير مخلقة ؟ فان قال : مخلقة ، قال : يا رب ما الرزق ؟ ما الأثر ؟ ما الأجل ؟ فيقول : انظر في أم الكتاب ، فينظر في اللوح المحفوظ ، فيجد رزقه ، وأثره ، واجله ، وعمله ، ويأخذ التراب الذي يدفن في بقعته ويعجن به نطفته . فذلك قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ [طه: ٥٥] [٢] ، وذكر عن علقمه ، عن عبدالله ، قال : إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها الملك بكفه ، فقال : أي رب أمخلقة أو غير مخلقة ؟ فان قال : غير مخلقة لم تكن نسمه وقذفتها الأرحام دماً ، وان قال : مخلقة ، قال : أي رب اذكر أم أنثى ؟ اشقي أم سعيد ؟ ما الأجل؟ وما الأثر؟ وما الرزق؟ وبأي ارض تموت؟ فيقول : اذهب إلى أم الكتاب فانك ستجد هذه النطفة فيها ، فيقال للنطفة : من ربك ؟ فتقول

---

(١) لم أقصد بذلك التأكيد أن الروح تنفخ بعد ان تتم الأيام الأربعين المذكورة لأن نفخ الروح قد يكون بعد تمام الأربعين وقد يمتد إلى أربعة أشهر والله تعالى أعلم .

(٢) خرجه الترمذي الحكيم أبو عبدالله في نوادر الأصول . ألتذكره للقرطبي ٩٥ .

الله [١] . فيقال : من رازقك ؟ فتقول الله ، فتخلف فتعيش في اجلها وتأكل رزقها ، وتطأ أثرها ، فإذا جاء اجلها ماتت ، فدفنت في ذلك المكان ، فالأثر : هو التراب الذي يؤخذ فيعجن به ماءه [٢] . أبو نعيم ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ " ما من مولود إلا وقد ذرّ عليه تراب حفرته " [٣].

من هنا نستنتج أن النطفة المخلقة هي تلك التي قدرت لها الحياة والاستمرار والبقاء إلى اجل الله تعالى اعلم به ، والغير مخلقة هي التي لم تكتب لها الحياة والاستمرار والتي تصير دماً مقذوفاً.

بعد أن يتم الجنين اجله المقدر له ينفصل عن أمه بالولادة ، فبعد أن كان يتغذى من ألام عن طريق الحبل السريّ يجعل الله سبحانه وتعالى له رزقاً عن طريق أخر ولكنه مرتبط بالأم أيضاً . فبعد أن يولد الطفل يهيئ الله سبحانه وتعالى له أسباب الحياة الجديدة ، وهو إنتاج الحليب من ثدي ألام ، باردٌ في الصيف دافئٌ في الشتاء ، وتستمر رضاعة الطفل من

---

(١) يعيدنا هذا لنستذكر قول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ فقد يكون المقصود من ذلك هو هذا الاستنطاق للنطف ، وقد يكون المقصود قوله تعالى في سورة لقمان ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فالمؤمن والكافر يشهد أن خالقه هو الله سبحانه وتعالى بدليل أن الإنسان حتى وان كان كافرا وهاله أمر التجئ إلى الله تعالى كما ورد في سورة الإسراء قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴾ والآيات عليها كثيرة في القرآن الكريم .

(٢) التذكرة ٩٦ .

(٣) القرطبي ، التذكرة ٩٥ .

ثدي أمه عامين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة كما جاء في القرآن الكريم مصداق ذلك ، وخلال هذه الفترة تبدأ أسنان اللبن بالبزوغ وذلك ليستعين بها الطفل على الطعام لأن الرضاعة قد لا تستمر طيلة العامين لجفاف ضرع ألام أو الحمل أو أي سبب آخر ، لذلك كان لا بد من وجود بديل عن حليب ألام ، حتى إذا انقطعت الرضاعة عن الطفل لأي سبب من الأسباب يكون قد زود بوسيلة جديدة ليستعين بها على النمو ومواصلة الحياة ، ويكون الإنسان خلال هذه الفترة غير مكتمل النمو الجسدي والعقلي ، لذلك فهو معفى من التكليف خلال هذه الفترة وهي ما تسمى بفترة الطفولة والتي تستمر إلى سن البلوغ ، فإذا ما بلغ الإنسان اكتمل بذلك نموه ونضج عقله فيصبح بعد ذلك مسئولاً عن نفسه أمام الله وأمام الناس ويبدأ عليه الكتاب وتسجل عليه أعماله إن خيراً فخير ، وان شراً فشر .

هذه المرحلة التي تلي مرحلة البلوغ، تسمى مرحلة الشباب ، وتستمر هذه المرحلة حتى سن الأربعين ، فإذا ما بلغ الإنسان هذا السن يكون قد بلغ أشدة ، لأن مرحلة الشباب مع أنها مرحله يكون فيها الإنسان ناضجاً إلا أن هذه ألمرحله قد يعتريها أحياناً مواقف طيش نتيجة الاندفاع والحماس وعوامل أخرى قد تؤثر على الإنسان ، فإذا ما بلغ الإنسان سن الأربعين فقد أصبح في قمة المسؤولية والاستقرار حيث يصبح في هذه المرحلة أكثر عقلانية ومسؤولية مما قبلها ، وهذه المرحلة نستطيع ان نطلق عليها مرحلة الأشد ، مصداقاً لقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ [الأحقاف: ١٥] . ثم تلي هذه المرحلة مرحلة الشيخوخة . أما آخر مراحل حياة الإنسان فهي مرحلة الكهولة وهي المرحلة التي يبدأ فيها الإنسان بالتراجع عقلاً وجسداً ، مصداق ذلك من كتاب الله تعالى : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾[النحل: ٧٠] .

العناصر

بعد أن تحدثت عن المراحل أريد أن انتقل إلى الأمر الآخر والاهم ألا وهو عناصر تكوين الإنسان ، فكما أن للإنسان أثناء الحياة مراحل فهو أيضاً يتكون من عناصر وهذه العناصر هي أربع عناصر ، جوهران ، وعرضان[1] .

أما العنصر الأول في تكوين الإنسان فهو الجسد ، وهو أول عناصر تكوين الإنسان وذلك أن الله سبحانه تعالى أول ما خلق آدم خلقه من طين ، وعليه فان الجسد هو أول مكونات وعناصر الإنسان .

وكما هو واضح من خلال الحديث الشريف إن مكونات الإنسان لم ولن تتغير منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام ، فقد بدأ طيناً (جسداً بلا روح) ، وكذلك هو الأمر بالنسبة لخلق الإنسان في الطريقة الثانية وهي التزاوج ما بين الذكر والأنثى . وكما ذكرت سابقاً فان أول مراحل الإنسان في الرحم هي مرحلة النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة وهذه هي المراحل التي تقابل مرحلة خلق آدم عليه السلام ، وهي أيضاً جسد بلا روح ، وتستمر هذه المرحلة لمدة أربعين يوماً كما أسلفت . ثم يأتي العنصر الثاني وهو الروح والتي تنفخ في ذلك الجسد بعد أن تنتهي الأيام الأربعين الأولى والتي تبدأ بعدها أعراض الحياة عند الجنين والتي من ضمنها الحركة والنوم والصحو.

ويبقى العنصر الثالث وهو العنصر المختلف فيه، ألا وهو النفس، والأمر المختلف فيه هنا هو: هل الروح والنفس هما اسمين لشيء واحد أم أنهما اسمين لشيئين مختلفين ؟ .....

---

(١) أما المراد بالجوهر فهو ما كان قائماً بذاته ، أما العرض فهو ما قام بغيرة ، والجوهران هما الروح والجسـد ، أما العرضان فهما النفس والحياة .

منهم من قال : إن الروح هي النفس ، ومنهم من قال : إن الروح شيء والنفس شيء آخر ، وقد أورد ابن القيم الجوزية في كتابه الروح ذلك الأمر فقال : (اختلف الناس في ذلك : فمن قائل : إن مسماهما واحد . وهم الجمهور ومن قائل : أنهما متغايران)[1] .

وإنني إذ ابحث في هذا الأمر فإنني أرجح قول من قال : أنهما متغايران وان النفس شيء والروح شيء آخر ، وسوف استدل على ذلك وأحاول إثباته من خلال ما تيسر من الكتاب والسنة ، ومن خلال ضرب الأمثال من الواقع . ورأيي في ذلك هو أن النفس لها مفهوم عام ومفهوم خاص، أما النفس بالمفهوم العام فلها أكثر من معنى ، وأما النفس بالمفهوم الخاص .

فهي عبارة عن ناتج اتحاد الروح مع الجسد، فإذا ما اتحدت الروح مع الجسد ، وإذا ما وجدت الروح في الجسد وسرت فيه تولد عن ذلك الاتحاد والسريان ما يسمى بالنفس .

وقد رأيت أن امثل ذلك الأمر من الواقع المحسوس وأشبهه في التيار والمصباح الكهربائي. فالمصباح الكهربائي يمثل الجسد .

أما التيار الكهربائي فيمثل الروح. وهنا لابد من أن نلاحظ الشبه الكبير ما بين المشبه والمشبه به مع الفارق في الناحية الإبداعية ولله المثل الأعلى.

لاحظ هنا أن تشبيه المصباح بالجسد هو تشبيه من الناحية المادية، فالمصباح موجود مرئي محسوس ويشغل حيزاً ، وكذلك الأمر بالنسبة للجسد فهو موجود مرئي محسوس ويشغل حيزاً أما بالنسبة للتيار فهو موجود محسوس ولكنه غير مرئي ولا يشغل حيزاً .

---

(١) كتاب الروح لابن القيم ص ٣٠١ .

لاحظ هنا انك لو قمت بلمس أسلاك الكهرباء فانك سوف تحس بوجود التيار وسريانه في جسمك ، ومع ذلك فأنت لا تستطيع رؤية التيار ، وكذلك هو الأمر بالنسبة للروح ، فأنت تشعر ببوادرها في جسدك وفي أجساد الآخرين ، ومع ذلك فأنت لا تراها ، ولاحظ أيضاً أن هناك فرق ما بين الإنسان الحي والإنسان الميت ، فالإنسان الحي يبقى في جسمه حرارة ، بينما الميت إذا خرجت روحه فقد تلك الحرارة وهذا من بوادر وجود الروح في الإنسان علماً أن ذلك قد يكون بسبب تدفق الدم في جسم الحي دون الميت ولكن هذا التدفق هو أيضاً احد بوادر وجود الروح في جسم الإنسان .

لاحظ هنا أن المصباح جوهرٌ قائمٌ بحد ذاته حتى دون إيصاله بالتيار . ولاحظ أيضاً أن التيار جوهرٌ آخر قائمٌ بحد ذاته حتى وان لم يتم إيصاله بالمصباح .

لاحظ هنا أن الإضاءة لم تأتي بفعل التيار وحده ، ولا بفعل المصباح وحده ولكنها نتجت بسبب اتصالهما معاً وسريان احدهما في الآخر ، وهذا السريان نتج عنه أمر أو عرض ثالث لا مجال لتجاهله ، فبعد أن كان التيار والمصباح وحدتان عند انفصالهما أصبحا ثلاث وحدات بعد اتصالهما. ترى هل نستطيع إنكار الأمر الثالث الذي تولد نتيجة اتصالهما معاً ؟ الحقيقة أننا لا نستطيع إنكار الضوء الناتج لأنه أصبح أمر ثالث لا مجال لإنكاره ، ومع ذلك فان الناتج ليس جوهرٌ قائم بحد ذاته إنما هو عرض ناتج عن سريان التيار داخل المصباح .

ولا يمكن لنا أن نتجاهل حقيقة الضوء الناتج لأنه أصبح حقيقة موجودة وقائمة بحد ذاتها . هذا المثال رغم بساطته إلا أن أهميته تكمن بالتشابه الكبير ما بين المشبه والمشبه به ، ألا وهي الروح والجسد ، و المصباح والتيار . وكذلك هو الأمر بالنسبة للروح والجسد ، فالجسد بلا روح هو عبارة عن جوهر موجود قائم بحد ذاته ولكنه بلا أي قوه ، تماماً هو عبارة عن كتلة من التراب ، فإذا لم يتم تحريك تلك الكتلة الترابية من قوه خارجية تؤثر عليها فان تلك الكتلة لا تستطيع وحدها أن تقوم بأي عمل والسبب في ذلك لأنها تعتبر جماد ساكن

لا حركة فيه ما لم تؤثر عليه قوه خارجية أخرى . وكذلك هو الأمر بالنسبة للروح منفردة بلا جسد فهي أيضاً جوهرٌ قائم بحد ذاته لكنها لا تملك القدرة على ارتكاب الأفعال ، لذلك فان الروح والجسد دون اتحاد كلاهما ميت ، وعليه فان موت الروح لا يكون بتلاشيها وانعدامها كما يعتقد البعض ، إنما يكون موتها بمفارقتها لجسدها وليس بزوال ماهيتها ، فإذا خرجت الروح من الجسد نستطيع أن نقول أن الروح قد ماتت ، والجسد أيضاً قد مات ، فإذا ما فارقت الروح الجسد ماتا معاً ، فموت الأرواح هو مفارقتها لأجسادها أي لمسكنها الذي خلقت من اجله . وموت الأبدان هو خروج أرواحها .

أما الدليل على أن الروح والجسد منفصلين لا قوة لأحدهما ولا حياة له دون الآخر الحديث الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عن تخاصم الروح والجسد بين يدي رب العزة سبحانه وتعالى يوم القيامة . قال : (ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى يخاصم الروح الجسد . فيقول الروح : يا رب إنما كنت روحاً منك جعلتني في هذا الجسد ، فلا ذنب لي . ويقول الجسد : يا رب كنت جسداً خلقتني ودخل فيه الروح مثل النار ، فيه كنت أقوم وبه كنت اقعد وبه أجيء لا ذنب لي . قال : فيقال : أنا اقضي بينكما اخبراني عن أعمى ومقعد دخلا حائطاً . فقال المقعد للأعمى : إني أرى ثمراً فلو كان لي رجلأن لتناولت . فقال الأعمى : أنا أحملك على رقبتي فحمله فتناول من الثمر فأكلا جميعاً . فعلى من الذنب ؟ قالا : عليهما جميعاً . فقال : قضيتما على أنفسكما) (١) . في هذا دليل على أن الروح وحدها لا حول لها ولا قوة ، والجسد وحده كذلك .

أما كلمة النفس فكما تطلق على النفس منفردة فهي أيضاً تطلق على الإنسان بعناصره الأربعة ، فأحياناً يكون المراد منها النفس بصفتها الخاصة وهي كما ذكرت : ناتج سريان الروح في الجسد ، وأحياناً يراد منها الإنسان بعناصره جميعها ، وأحياناً يراد به الدم

---

(١) الروح ٢٦١ .

كما ورد في الحديث ((ما لا نفس له سائله)) إذا وقع في السائل فانه لا ينجس ، والمراد به ما لا دم له كالصراصير وغيرها من المخلوقات المشابه لها في التكوين الجسمي. وأحياناً أخرى قد يقع خلط ما بين النفس والروح، لأن من يعتبر أن النفس هي ذاتها الروح يأخذ الاثنين بنفس المعنى ، فقد يأتي بأي لفظ منهما ما دام يعتقد أنهما اسمين لشيء واحد . وهنا لا بد أن نلاحظ أننا إذا قمنا بالرجوع إلى القرآن الكريم سوف نلاحظ أمرا هاماً ألا وهو عدم ذكر للفظ الروح فيما يتعلق بالموت أو الوفاة الوارده في القرآن الكريم . والمقترن بالموت والوفاة بالنسبة لّلفظين هو النفس لا الروح ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الزمر: ٤٢] .

نلاحظ هنا ومن خلال نص الآية الكريمة أن الله تعالى يتوفى الأنفس لا الأرواح، فلماذا وردت كلمة الأنفس ولم ترد كلمة الأرواح ؟ السبب في ذلك هو : لو أن الأرواح هي التي ذكرت في الآية الكريمة لتغير معنى الآية ، وتغير معه مضمون الحياة ، لأنه لو كانت النفس هي نفسها الروح لتشابه الميت بالنائم تشابهاً تاماً وهذا أمر مردود ، لأن النوم يختلف عن الموت في أشياء منها : أن الميت لا يتحرك ، ولا يتنفس ، ولا يسري الدم في عروقه ، ولا يشعر بشيء ألبته ، ويخالفه في ذلك النائم .

فما هو تفسير من قال أن الروح هي النفس. ذكر ابن القيم في كتابه الروح قال: قالوا: (إن الإنسان إذا نام خرجت الروح من الجسد وبقي لها ارتباط بالجسد كارتباط الضوء بالمصدر) أ هـ.

وأرى الصواب هو أن الروح لا تخرج من الجسد إلا في حالة واحدة وهي حالة الموت فقط. أما الوفاة المذكورة في الآية الكريمة من سورة الزمر فهي للنفس وليس للروح ، والوفاة في الآية الكريمة لا تعني الموت كما بينت ذلك في كتاب المنار ، وإنما تعني القبض من

استوفيت الشيء إذا قبضته ، والذي يتوفاه الله تعالى ويمسكه ويقبضه في حالة النوم هو النفس وليس الروح ، فالنفس تستوفى في موضعين ، أما الموضع الأول فهو الموت وهذه وفاة للنفس بالضرورة وذلك لأن الموت يعني مفارقة الروح للجسد وبالتالي مفارقة النفس لانتفاء مسبباتها ، فإذا ما فارقت الروح جسدها فقد فارقت النفس بالضرورة لأن النفس كما سبق وذكرت هي ناتج سريان الروح بالجسد .

أما الموضع الثاني الذي تستوفى فيه النفس فهو وفاة النوم، ووفاة النوم تلك هي التي عنتها الآية الكريمة. وهنا لابد لي أن الفت النظر إلى أمر هام واذكره للضرورة ألا وهو الفارق الكبير ما بين (الموت ، والوفاة) فقد يعتقد البعض أن الموت والوفاة يعنيان نفس الشيء والحقيقة أن هناك فارق كبير ما بين الأمرين من حيث المعنى ، حيث أن الوفاة ذات معنى أوسع واشمل من الموت ، أما الموت فله معنىً واحد وهو مفارقة الحياة وهو ما يكون ضد الحياة . أما الوفاة فهي ذات معانٍ عدة ومنها : وَفَى بمعنى تم وأدى ، ومنها : وَفَّى فلأن حقه : أي أوفاه إياه . واستَوفَى فلأن حقه: أي أخذه تاماً وافياً بلا نقصان.

ويقال : استوفى منه ماله : لم يبقَ عليه شيئاً ومن معانيها أيضاً تَوَفَّى الله فلاناً : أي قبض روحه ، فهذه جميعها يشملها معنى الوفاة بحسب موقع الكلمة في الجملة ، وعليه فإننا لا نستطيع أن نعرف المعنى الدقيق لهذه الكلمة إلا بحسب ورودها في سياق المعنى العام للجملة ، وليس أدل على ما أقول من كتاب الله سبحانه وتعالى بأمر عيسى عليه السلام ، فكما هو معلوم ودليله الكتاب والسنة والإجماع ما جاء عن عيسى عليه السلام انه لم يمت إنما رفع حياً إلى السماء ، فهذا الأمر لا خلاف فيه بين جميع المسلمين ، ومع ذلك فقد ورد في كتاب الله تعالى آيات كريمة تتحدث عن وفاة عيسى عليه السلام كما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[آل عمران: ٥٥] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[المائدة: ١١٧] ، وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ

حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٥] .

فهذه الآيات الكريمة جميعها تحدثت عن الوفاة ولكنها لم تقصد الموت . أما بالنسبة لعيسى عليه السلام فالمقصود فيها إتمام المدة المقررة له من قبل الله سبحانه وتعالى للرسالة الأولى والتي استمرت ثلاثة وثلاثون عاماً ثم رفعه الله سبحانه وتعالى حياً . أما بالنسبة لوفاة النوم ووفاة الليل فالمقصود فيها هو إتمام الأجل الذي تسجل فيه أعمال الإنسان حتى تلك اللحظة ، وذلك لأن القلم مرفوع عن النائم حتـى يفيق كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح ، فإذا ما مات الإنسان خلال نومه استمر رفع القلم عنه لأنه يكون بذلك قد أتم اجل الحياة الذي قدره رب العزة سبحانه وتعالى .

أما إذا ما عاد للحياة بأمر الله باستيقاظه من النوم استمر الحفظة الكرام بتسجيل أعماله ، فإذا ما نام توقفوا حتى يتم اجله المقرر ، أما الآية الكريمة من سورة النساء ففيها دليل على أن الموت هو الذي يتوفى الإنسان ، أي أن الموت نفسه هو الذي ينهي حياة الإنسان ، وقد تعني الوفاة الموت أيضاً ، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤] والآيات على ذلك كثيرة . ومن معاني الوفاة أيضاً في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢٨١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[آل عمران: ١٨٥] ، والمقصود بالوفاة هنا يراد فيها استيفاء الحقوق ، أي أن الإنسان يأخذ حقوقه غير منقوصة وتؤخذ منه حقوق الآخرين غير منقوصة أيضاً ، أي أن الإنسان يجد ما قدم ويحاسب عليه كله مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن

﴿ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] ، وعليه فان الوفاة ذات مدلول اشمل واعم وقد تشمل الموت ، أما الموت فذا مدلول أضيق ويدل بمعناه الحقيقي لا المجازي على مفارقة الحياة فقط .

أما بالنسبة لوفاة النوم فهي حالة خاصة جعلها الله سبحانه وتعالى من اختصاصه لكي يستطيع الإنسان أن ينعم بالراحة في حياته وهي التي تفسر حالة النوم لدى الإنسان ولولاها لما نام الإنسان أبدا ولبقي في حالة صحو طيلة حياته ، وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى بنا لأن النوم ليس حالة إرادية كما يعتقد البعض بل هي قدرة ربانية ، والدليل على ذلك انك أحياناً تضع جسدك في الفراش تريد النوم فلا تستطيع إليه سبيلا وتقول إنني مصاب بالأرق أو القلق ولا أستطيع النوم ، وأحياناً أخرى تكون جالساً وربما واقفاً أو تقود سيارتك فتنام دون أن تدرك ذلك ، ترى هل تستطيع أن تقول إنك نمت بإرادتك ؟ والحقيقة انك مسلوب الإرادة في النوم والصحو ، لأن ذلك لو كان بإرادتك أو ملك يدك لقلت : أريد أن أنام فتنام في الحال ، وقلت : أريد أن أصحو فتصحو في الحال، فأنت تنام أحياناً دون إرادة أو رغبة منك في النوم ، وتبقى أحياناً مستيقظاً رغم رغبتك بالنوم فأنت أيها الإنسان لا تملك حتى أمر نومك وصحوك والأمر في هذا وذاك مرتبط بإرادة الله سبحانه وتعالى ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: ((كل شيء بقدر حتى العجز والكيس))[(١)].

فنومك أيها الإنسان ليس بيدك وصحوك كذلك . وعليه فان قبض النفس هو نفسه الذي يحدث النوم، فإذا ما ردت النفس أفاق الإنسان من نومه.

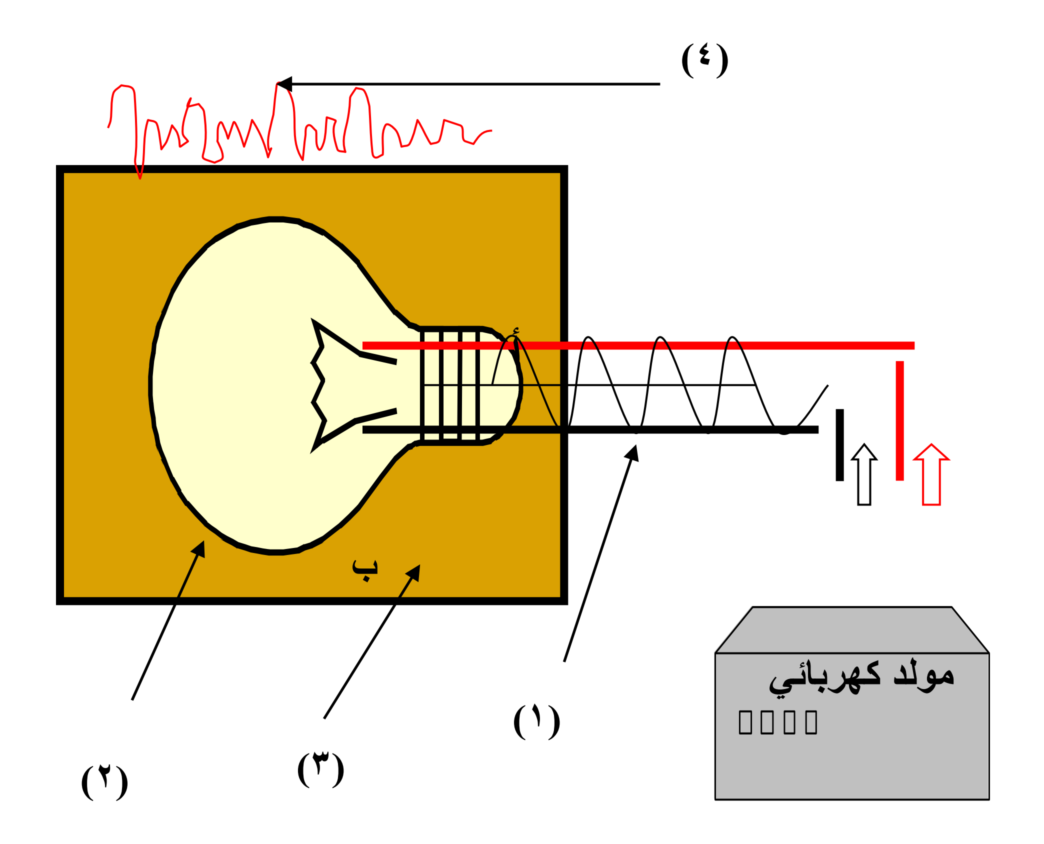
من هنا نستطيع القول أن للإنسان ثلاث حالات وهي: الحالة الأولى : وهي الحالة الطبيعية أو حالة (الصحو) وفي هذه الحالة يتكون الإنسان من العناصر الأربعة وهي : الروح الجسد ، النفس ، والحياة .

---

(١) مسلم ١٦/ ١٦٧ .

الحالة الثانية : (اللاموت واللاحياة) وهي حالة (النوم) وفي هذه الحالة يتكون الإنسان من ثلاثة عناصر وهي الروح ، الجسد ، والحياة وفي هذه الحالة يكون الإنسان حياً أيضاً تلك الحياة التي يحياها الإنسان في فترة النوم تكون منقوصة لغياب الوعي والإدراك خلالها وبالتالي فهي حياة مختلفة عما هي في الحالة الأولى ويكون الغائب في هذه الحالة هو النفس التي تكون قد قبضت من قبل الله تعالى ، ويتبع هذه الحالة أيضاً حالة أخرى مشابهه هي حالة الإغماء أو فقدان الوعي والتي أميل إلى تسميتها فقدان النفس لأنني أرى أن فقدان النفس هو ما يؤدي بالإنسان إلى حالة النوم أو الإغماء . أما الحالة الثالثة وهي الحالة الأخيرة من حالات الإنسان فهي (الموت) وهذه الحالة هي التي ينفصل بها العنصران الأساسيان للإنسان عند خروج الروح وانفصالها عن الجسد، وعندما تنفصل الروح عن الجسد فيموت الجسد وتنتهي حياة أعضائه جميعها ، وتموت الروح بسبب مفارقتها للجسد الذي كانت تساكنه وتصاحبه وتذهب إلى مستقرها بعد الموت وهذا هو موتها لكنها لا تتلاشى بل تبقى على مهيتها وتموت النفس أيضاً ولكن بالتلاشي وزوال مهيتها . وتالياً رسم توضيحي للمشبه به يمثل الحالات الثلاث المذكورة :

١٠ حالة الحياة التامة (الصحو) :



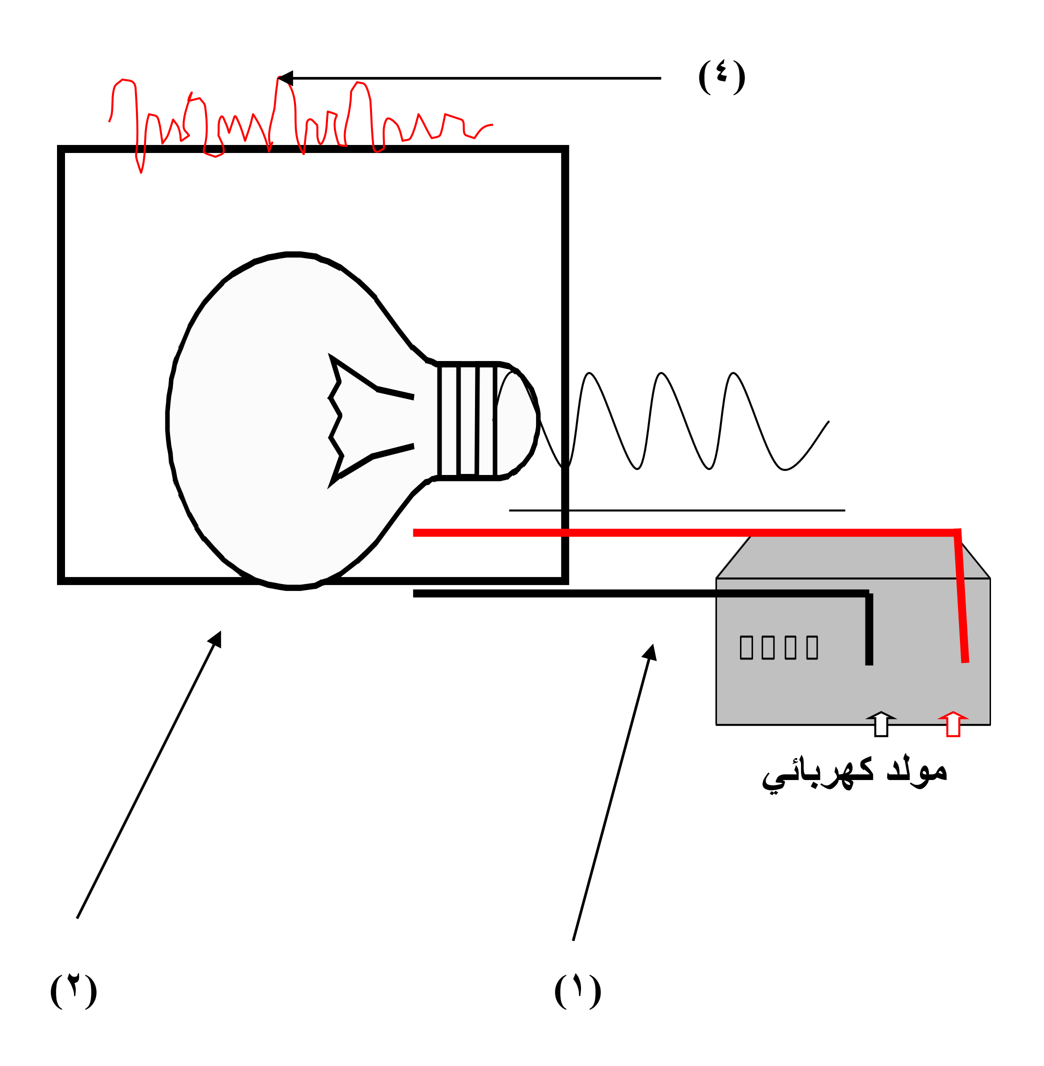
الرقم (١) عبارة عن التيار الكهربائي ويمثل (الروح) .

الرقم (٢) عبارة عن المصباح الكهربائي ويمثل (الجسد) .

الرقم (٣) عبارة عن الضوء الناتج بسبب سريان التيار في المصباح ويمثل (النفس).

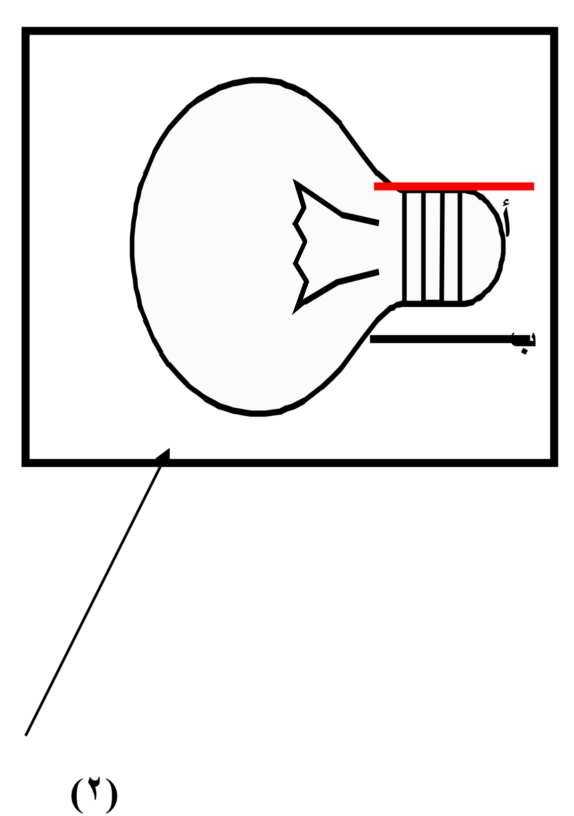
الرقم (٤) عبارة عن الحرارة الناتج بسبب توهج المصباح ويمثل (الحياة) والمتمثلة في التنفس والحركة .

٢. الحالة الوسطى اللاحياة واللاموت (وفاة النوم) :



والأرقام فيها تمثل الأرقام في المثال السابق باستثناء الرقم (٣) فهو غير موجود والذي يمثل الإضاءة والتي بدورها تمثل النفس وهذا هو المقصود بوفاة النفس الذي يملك أمره رب العزة سبحانه وتعالى والذي سواه بقدرته رغم وجود الروح ووجود الجسد ، أما الرقم (٤) في هذه الحالة فهو غير موجود عملياً في المصباح بينما هو موجود فعلياً في الإنسان أثناء النوم والذي يمثل التنفس والحركة .

٠٣ حالة الموت :



وفي هذه الحالة يتكون الإنسان من الجسد فقط .

لاحظ لو أننا أحضرنا ساعة قياس فولتميتر فسوف نجد أن هناك فولتية موجودة على النقطة (أ ، ب) في الحالتين الأولى والثانية بينما هي غير موجودة في الحالة الثالثة .

أما أعجب الحالات فهي الحالة الثانية ، حيث أن الفولتيه موجودة والتي تمثل الروح والمؤشرات على وجودها أيضاً موجودة كالحركة ، والنبض ، والتنفس ، والحرارة ومع ذلك لا توجد إضاءة أي لا توجد نفس وكأن هناك فصل في سلك التنجستون داخل المصباح يؤدي إلى عدم إكمال الدائرة الكهربائية للحصول على إضاءة وذلك هو السر العجيب فكما أن الروح سرٌ عجيب فكذلك هو النوم ، فسبحان الله العظيم .

نسبة العناصر إلى أصولها

لكل عنصر من العناصر اصل يجب أن نرده إليه .

أما العنصر الأول فهو الجسد : وهو عبارة عن الوعاء الحاوي للعناصر الأخرى ، واصل هذا العنصر هو ارضيٌ طينيٌ ودليله قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ﴾[الحج: ٥] ، وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ﴾ [غافر: ٦٧] ، فالتراب هو المادة الخام التي خلق الله تعالى منها الإنسان كجسد ، قال تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴾ [الرحمن: ١٤] ، والصلصال هو أيضاً مرحلة من مراحل التراب المعجون بالماء . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴾ [المؤمنون: ١٢] والطين هو أيضاً التراب المعجون بالماء ، وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ﴾[الأنعام: ٢] وقال تعالى : ﴿ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥] .

والضمير في الآية الكريمة يعود على الأرض لأن الأرض هي الأصل للتراب والطين والصلصال وكل ما نتج من أطوار التراب المذكورة ، وقد جعل الله سبحانه وتعالى نشأة الإنسان من التراب في أطوار شتى كالنطفة ، والعلقة ، والمضغة ودليله قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ المؤمنون: ١٢ – ١٤ . من الآيات الكريمة السالفة الذكر نلاحظ أن اصل تكوين الإنسان كجسد هو من التراب بتسلسل رباني إبداعي من التراب إلى مرحلة العظم واللحم والدم فتبارك الله أحسن الخالقين .

أما العنصر الثاني فهو الروح ، واصل الروح هي نفخةٌ أو نفحةٌ من روح الله سبحانه وتعالى وهي سر الله العظيم في خلقه ، واصلها علويةٌ ملكوتية ربانية من أمر الله تعالى ودليله

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] .

وكما دلت عليه الآية الكريمة ، فإن الروح من أمر الله تعالى ، لذلك قلت أنها ملكوتية ربانية علوية لأنها من أمر الله تعالى ، ودلت الآية أيضاً على أن العلم بشكل عام وبالذات بالنسبة لأمر الروح هو قليل لدى الإنسان ، فنحن لا نعلم عنها إلا اليسير الذي أتانا إياه رب العزة سبحانه وتعالى .

وذلك لا يعني أبدا أن لا نبحث عن حقيقة الروح وذلك لأننا موهوبون بالعقل الذي ميزنا الله به عن جميع مخلوقاته وجعلنا به خلفاء على الأرض . وما دامت الروح من أمر الله فهذا يقودنا إلى أن الروح هي نزعة الخير والإحسان في الإنسان . وكونها من أمر الله وسره في هذا الخليفة الذي استخلفه على الأرض فهذا يعني أن غذاء الروح هو طاعة الله تعالى والتقرب إليه لأن الأصل الحقيقي للروح هي نفخة من روح الله ، فالروح هي الجوهر الذي خلقه الله تعالى بواسطة النفخ في آدم ، وبواسطة نفخ الملك الموكل من قبل الله تعالى في ذرية آدم من بعده والى قيام الساعة .

أما العنصر الثالث في تكوين الإنسان فهو النفس وهي عرضٌ وليست جوهر، وصفة النفس أنها غريزية شهوانية ترغب بالهوى وتميل إليه وتبحث دائما عن إشباعه.

والهوى هو كل ما تهواه النفس وتعشقه لذلك فهي المحرك والدافع للرغبات والشهوات ودليل ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[النازعات: ٤٠ – ٤١] ، فالآية الكريمة تدل على أن النفس تميل وتنزح إلى الهوى وهواها كما هو معلوم هو إشباع رغبات الأعضاء والجوارح فمن اتقى نهاها ومنعها عن كل ما ترغب به حسب أوامر الله سبحانه وتعالى ، وأما من طغى فهو الذي يتبع نفسه هواها ويحقق لها رغباتها ولا ينهاها عن غيها فيقع بالمحذورات

والمحرمات . ومن الأدلة أيضاً على أن النفس ميالة للهوى قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] ، هذه الآية الكريمة من كتاب الله سبحانه وتعالى فيها دليل على أن النفس هي المنطلق لارتكاب المخالفات والآثام والخطايا.

فما هو ذلك الشيء أو الأشياء التي يحرص الإنسان دائما على إخفائها ويكون شديد الحرص على أن لا يعلمها الآخرون ؟ إنها الأشياء التي تعد من المخالفات والأخطاء . أما فعل الخير فقد يخفيه الإنسان عن الناس ابتغاء مرضات الله وابتغاء الأجر من الله ، ومع ذلك فهو لا يأبه إذا انكشف ذلك الأمر لأنه لا يخجل من فعله بل يكون فخوراً به .

أما فيما يخص الآية الكريمة سالفة الذكر من سورة البقرة فسوف أتطرق لتفسيرها وبيان مدلوها إن شاء الله تعالى في باب خاص تحت عنوان باب تفسير آية وحديث الشك.

هل النفس واحده أم ثلاث ؟

لقد ورد في القرآن الكريم ثلاث صفات للنفس وهي : المطمئنة ، اللوامة ، الأمارة وهذا بدوره يؤكد لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن النفس شيء والروح شيء آخر لأن الروح لا يمكن أن تكون لها هذه الصفات المختلفة أما الصفات فقد بينها رب العزة سبحانه وتعالى، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: ٢٧ – ٣٠] .

أما الأمارة فقد وردت في قوله تعالى: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ١ – ٢] .

أما الأمارة ففي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [يوسف: ٥٣] . لقد بين الله سبحانه وتعالى أن النفس هي التي تأمرنا بالسوء باستثناء ما رحم الله سبحانه وتعالى فما هو مدلول الرحمة التي وردت في الآية الكريمة سالفة الذكر؟

تلك هي سيطرت الروح على النفس ، وكما ذكرت سابقاً إن الإنسان هو عبارة عن خليط من العناصر الأربعة التي ذكرت سابقاً .

فعنصر الجسد هو الوعاء الذي تحل فيه الروح منتجةً بذلك النفس ، وهنا يأتي الفارق بين البشر فمنهم من تسيطر روحه على نفسه فيكون على صلة وثيقة مع الله سبحانه وتعالى ، ومنهم من تسيطر نفسه على روحه فيصبح عبداً لشهواته ، وهنا لا بد أن نضرب على ذلك مثل للتشبيه والتقريب ليكون الأمر اقرب إلى الذهن ، لو قمنا بإحضار كأس من الماء ووضعنا عليه قطرات من عصير الليمون وذقنا الماء فسوف نجد أن طعم الماء أصبح

حامضاً ، فإذا قمنا بإضافة نسبه من السكر وأذبناها في الماء فعندها يصبح طعم الماء حامضاً حلواً ، وتماماً هو الإنسان، فالجسد يشبه الماء ، ولنشبه النفس بالليمون ، والسكر بالروح ولله المثل الأعلى . فإذا زادت نسبة السكر في الماء أصبح طعم الماء حلو المذاق وطغى طعم السكر على طعم الليمون ، وإذا زادت نسبة الليمون في الماء أصبح الطعم حامضاً وطغى طعم الليمون على السكر .

وكذلك هو الإنسان فإذا كان ذو صلة مع الله تعالى وتمسك بشرعة طغت الروح على النفس فكبحت جماحها ، وأما إذا طغت النفس على الروح اندفع الإنسان لشهواته . أما أقوى سيطرة للروح على النفس فهي عند الأنبياء والأصفياء والصديقين ، فهؤلاء تكاد أرواحهم أن تطغى على أنفسهم بحيث ينتفي تأثير النفس كلياً أو شبه كلي .

أما إذا كان الإنسان بعيداً عن أوامر الله تعالى وتعاليمه واتبع نفسه هواها طغت النفس على الروح وهذه حالة الفسقة والعصاه والكفرة .

أما إذا كان الإنسان بين هذا وذاك كان متأرجحاً فأحياناً تطغى الروح على النفس فيزداد الإيمان ويقوى ويميل الإنسان إلى الورع والعبادة والتقوى وأحياناً تطغى النفس على الروح فيميل الإنسان إلى حب الشهوات وإشباع الرغبات وهذا ما يفسر حديث رسول الله ﷺ " إن الإيمان يزيد وينقص " فإذا ما سيطرت الروح زاد الإيمان وإذا ما سيطرت النفس نقص الإيمان .

أما الحقيقة التي أراها واعتقدها للنفس فهي تلك التي سبق وذكرتها وهي : الإنسان بجميع عناصره في المفهوم العام للنفس ، وناتج سريان الروح في الجسد بالمفهوم الخاص للنفس .

أما الحالات الثلاث الوارده في الآيات الكريمة السالفة الذكر فهي صفاتٌ لهذه النفس ، وذلك لأن لكل إنسان نفسٌ خاصة به ، وكل إنسان لا بد أن تتصف نفسه بأحد الصفات الثلاث المذكورة سابقاً في الآيات الكريمة .

فالنفس المطمئنة هي تلك النفس التي سيطرت عليها الروح فطوعتها لتشركها معها في غذائها الروحي وهو عبادة الله ، بحيث تصبح النفس تأنس وتتمتع وتشتهي طاعة الله تعالى فوجدت متعتها بالتقرب إلى الله تعالى ، وصاحب هذه النفس يصبح ميله ورغبته وسعادته في الطاعات والعبادات والتقرب إلى الله تعالى وهذه كما ذكرت سابقاً هي صفه لأنفس الأنبياء والصديقين والمقربين الذين تكون متعتهم في طاعة الله والتقرب إليه .

وهنا يجب أن لا نغفل عن إن أصحاب الأنفس المطمئنة مع اطمئنان أنفسهم إلا أن الطمأنينة درجات ، فكما أن الجنة ، والنار ، والسعادة ، والشقاء ، والفرح ، والحزن وغيرها من المسميات درجات فكذلك هي الطمأنينة أيضاً درجات ، وأكثر الأنفس طمأنينة هي أنفس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بحيث يغلب فيهم سمو الروح على غريزة النفس حتى اخفت الروح أي ميول للنفس إلا فيما احل الله ، ومنشأ هذه الطمأنينة أمران الأمر الأول : هو بسبب اصطفائهم من قبل الله سبحانه وتعالى ، فكما أن الله سبحانه وتعالى اصطفاهم على خلقه فقد اصطفى لهم أيضاً أنفساً ليست كأنفس غيرهم من البشر وحسبك في ذلك أنهم معصومون عن الخطايا والذنوب لم يرتكبوا خطيئةً قط .

والأمر الثاني : فحسبهم ويكفيهم أيضاً أن الله تعالى يوحي إليهم فهم قريبون منه دائماً ، وكفاهم بهذه الصفة والميزة طمأنينته لأنفسهم ، ثم يليهم الصديقين ، والأولياء ، والأصفياء فحسب درجة الإنسان وقربه من الله تعالى تكون درجة طمأنينته ، وكلما نقصت درجة الصلة بالله نقصت طمأنينة نفس الإنسان .

أما النفس اللوامة فقد اختلف في معناها ، وقد نقل ابن القيم في كتابه الروح ذلك الاختلاف فقال : (قالت طائفة : هي التي لا تثبت على حال واحدة ، اخذوا اللفظة من التلوم . وهو التردد ، فهي كثيرة التقلب والتلون .

وقالت طائفة : اللفظة مأخوذة من اللوم ، وقال آخرون : هي نفس المؤمن توقعه في الذنب ثم تلومه عليه)[1] .

وارى أن القول الأول هو الصواب وان معنى اللوامة : أي المترددة المتغيرة التي لا تثبت على حال ولكن ليس بالوصف الذي نقله ابن القيم في كتابه من أن أحوالها كثيرة وارى أنها هي النفس المترددة ما بين الطمأنينة والأمارة ، فأحياناً تغلبها الروح فتطمئن ، وأحياناً أخرى تغلب الروح فتأمر بالسوء إرضاءً لرغباتها وشهواتها ، وهذه الصفة تطلق على المؤمنين بوحدانية الله تعالى الذين تكون أعمالهم خليط من الخير والشر ، فإذا ما تزودت الروح بغذائها وهو الصلة مع الله تعالى وإتباع تعاليمه هدأت النفس واطمأنت وانقادت لأمر الروح .

وإذا ما نقص غذاء الروح وأهملها صاحبها ولم يزودها بالطاقة التي تحتاجها من صلةٍ بخالقها وبارئها سيطرت عليها النفس بميلها إلى الهوى فأمرت صاحبها وجوارحها بالسوء لتشبع نهمها من الشهوات. أما النفس الثالثة أو الصفة الثالثة للنفس فهي الأمارة وهذه النفس هي نفس الكافر ، فهي لا تفتأ تأمر صاحبها بالسوء ، فهي المسيطرة على الروح ، لأن الروح عند الكافر هي روح مشلولة لا تأثير لها على صاحبها ذلك لأن غذاء الروح الفطري الذي فطرها عليـــه رب العزة سبحانه وتعالى هو الصلة بالله .

أما الكافر فهو يفتقد لهذه الصلة لذلك تجد روحه مظلمة خاوية من محتواها فهي تمده فقط في مقومات الحياة التي وصفها رب العزة سبحانه وتعالى بالموت فشبه الكافر بالميت

---

(١) الروح ص ٣١٢ .

وشبه المؤمن بالحي قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام: ١٢٢] .

وذلك لأن الكافر ميت الروح لأنه حرم روحه من مقومات حياتها الحقيقية والتي هي كما ذكرت أنفاً الصلة بالله سبحانه وتعالى ، وهذا بدوره يفسر لنا الكثير من حالات الانتحار التي يقدم عليها بعض الناس في الدول المتقدمة حيث أن أولئك الأشخاص يشبعون رغبات أنفسهم فلا يبقى من غايةٍ يسعون لها ، وبما أن الروح خاوية من مضمونها ومنقطعة عن صلتها بخالقها يقدم أصحاب تلك الأنفس على الانتحار لأنهم يشعرون انه لم يبقى لهم ما يعيشون من اجله والسبب الرئيسي في ذلك هو خواء الروح .

تلك النفس تسيطر على صاحبها سيطرةً تامة وتأمره بالسوء دائماً إلى أن تهلك بسوئها . واقرب تمثيل لذلك هو ألعوده إلى مثل التيار ، والمصباح ، والضوء ، وكما ذكرت سابقاً ومثلت التيار بالروح ، والضوء بالنفس ، والجسد بالمصباح ، فانه إذا ما زادت شدة التيار فان ازدياده يؤدي إلى زيادة توهج مقاومة المصباح وبالتالي ازدياد الضوء وبهذه الحالة تزداد إضاءة النفس أي أنها (تتجلى النفس وتسمو ويزداد تألقها وقربها إلى الطمأنينة ، ويجدر التنويه هنا أنني امثل النفس المطمئنة بالمنيرة والأمارة بالمظلمة) لاحظ أن ازدياد شدة التيار وقوته يزيد من إضاءة أو إشباع المصباح وبالتالي زيادة التوهج ، وكلما نقصت شدة التيار في المصباح نقصت شدة توهجه وبالتالي تقترب النفس إلى أن تكون أمارة مظلمة ، فكلما نقصت شدة التيار ضعف التوهج والضوء ، فإذا ما نقص التيار عن القيمة المؤثرة القادرة على إضاءة المصباح أصبح المصباح دون إضاءة ، أي أصبحت النفس في ظلام حالك أجارنا الله من أن نكون من أصحاب النفوس الأمارة بالسوء .

الدليل على اختلاف
الروح عن النفس

من اكبر الأدلة التي تدل على أن الروح شيء والنفس شيء آخر هو الفرق ما بين النوم والموت . ومن الفوارق ما بين النوم والموت والتي وردت في القرآن الكريم قصة أصحاب الكهف وهي تمثل إحدى حالات النوم ، وأخرى أيضاً وردت في القرآن الكريم تمثل الموت . تروي سورة الكهف قصة مجموعة من الأشخاص الله اعلم بعددهم آمنوا بالله وخرجوا من أرضهم التي كان أهلها يكفرون بالله ثم التجأ أولئك الفتيه إلى كهف دخلوا فيه وناموا واستمر نومهم لمدة ثلاثمائة وتسع سنوات ، ثم أفاقوا من سباتهم الطويل ذلك وبعثوا واحداً منهم ومعه أوراق مالية كانوا يحملونها ليشتري لهم طعاماً ليكتشفوا وليكتشف أهل المدينة التي ذهبوا إليها أن هؤلاء الأشخاص جاؤوا من مجتمع عمره يقارب الثلاثمائة عام وأنهم يعيشون في زمن بعيد عن الزمن الذي خرجوا فيه من أرضهم ثم آماتهم الله تعالى بعد ذلك وخلد ذكرهم في القرآن الكريم ليكونوا عبره للمعتبرين .

قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾[الكهف: ٩ – ١٢] ، لاحظ نص الآيات القرآنية الكريمة التي أخبرت أنهم آوو إلى الكهف أي اتخذوه ملجأً ومأوى ثم سألوا الله تعالى الرحمة والرشد فأجاب الله تعالى دعوتهم بان ضرب على آذانهم ، أي أن الله تعالى قطعهم عن العالم الخارجي فما عادوا يسمعون أو يعلمون عنه شيئا . وصرف الله تعالى الناس عن ذلك الكهف فلم يكتشف أولئك النفر أحد.

فالضرب على الآذان يعني عدم الاستماع ومعرفة ما يحدث في الخارج والسبب في ذلك أنهم كانوا في الأصل في حالة سبات عميق ونوم شديد إرادة الله تعالى لهم، والدليل على أنهم كانوا نائمين وليسوا أمواتاً قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [الكهف: ١٧ – ١٨] .

نلاحظ من الآيات الكريمة المذكورة تزاور الشمس وقرضها لهم من فجوة الكهف ، فقد كانت الشمس تتجنبهم وتميل وتنحرف عنهم عند طلوعها وعند غروبها لئلا تؤذيهم ، ويصور رب العزة سبحانه وتعالى حالهم كأنهم أيقاظ وهم ليسوا كذلك بل هم رقود ويتقلبون على جنوبهم فمرةً على الأيسر وأخرى على الأيمن وذلك حتى لا تتعفن أجسامهم لطول رقدتهم ، فالهدف من تقلبهم وتزاور الشمس عنهم هو لكي لا تتعفن أجسادهم ولكي لا تؤذيهم الشمس بحرارتها . ومما يدل على أنهم كانوا نيام ، أن التقلب على الجنبين لا يمكن أن يحدث للميت بل هو يحدث للإنسان الحي ، ولو كان أولئك النفر أمواتاً لتحللت أجسادهم وفسدت وتآكلت .

بناءاً على ما قدمت سابقاً فإنني أرى أن أولئك الفتية قد قبض الله سبحانه وتعالى أنفسهم طيلة تلك الفترة التي رقدوا فيها داخل الكهف وهذا ما أدى بهم إلى ذلك النوم الطويل ، وعندما أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم أنفسهم أفاقوا من سباتهم ، ولاحظ أيضاً أنهم طيلة تلك الفترة لم يشعروا بالجوع أو العطش ذلك لأن الدافع المحرك للغرائز والشهوات كان غائباً وبمجرد أن عادت إليهم أنفسهم أفاقوا من سباتهم وشعروا بالجوع ، فبمجرد أن أفاقوا من نومهم طرحوا على أنفسهم سؤال وهو قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم

بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾[الكهف: ١٩] .

أما الموت فأمره مختلف تماماً، وقد ورد في القرآن الكريم في عدة مواضع منها قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣] ، وقوله تعالى : ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة: ٢٥٩] .

لنلاحظ الفارق ما بين الآيات التي تحدثت عن أصحاب الكهف والآيات التي تحدثت عن الموت والإحياء ، فرغم أن موت إنسان ثم حياته مره أخرى قبل البعث هو أمر إعجازي وخارق للقوانين والقواعد البشرية التي نقيس عليها إلا إنني أعتمد قاعدة ثابتة عندي مفادها (إن قدرة الله سبحانه وتعالى تتعدى القواعد والقوانين والأعراف ألمتبعه لدى البشر وذلك لأنها لا ترتبط بأي قاعدة من تلك القواعد البشرية ولا يوجد بالنسبة لها مستحيل أو غير ممكن أو لا تقبل التطبيق أو غير واقعية فهذه كلها بالنسبة للبشر أو بالنسبة للخلق أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى فهي غير موجودة لأنه سبحانه وتعالى هو الخالق المتحكم بنواميس الكون وأمره بين الكاف والنون إذا أراد سبحانه شيء فإنما يقول له كن فيكون) .

لاحظ أن الله سبحانه وتعالى عندما قص لنا قصة الذين آماتهم ثم أحياهم أجملها وأوجزها ولم يفصلها والسبب في ذلك أن الموت هو الموت. فالموت يعني خروج الروح ثم

يبلى الجسد ليصبح عظاما ، أما عندما قص رب العزة سبحانه وتعالى قصة أصحاب الكهف لم يوجزها إنما فصلها ، وارى أن السبب في ذلك هو أن النوم كعملية تحدث للإنسان هي وبالنسبة لنا كبشر اعقد وأصعب تفسيراً من الموت ومن الحياة أيضاً ، فالميت هو إنسان خرجت روحه من جسده ولا حياة فيه ، والحي هو إنسان اكتملت فيه أسباب الحياة التي تمكنه من ممارسة نشاطاته ، أما النائم فأمره محير فلا هو ميت كالأموات وأيضاً حياته ليست كاملة كالأحياء وذلك لأن النوم هو حالة وسطية بين الحياة والموت وهي من أعظم آيات الله سبحانه وتعالى في خلقه ، لهذا السبب ولغيره من الأسباب فانا أصر على أن النفس شيء والروح شيء آخر لذلك فإنني أرى أن النفس هي التي تؤدي إلى إدراك الأشياء ومعرفتها وتحسسها ، وأنها هي التي تظهر عوارض الأعضاء ، فهي أي النفس أشبه ما تكون كالشاشة لجهاز العرض ، أو كعداد السرعة بالنسبة للسيارة ، أو كالزئبق في ميزان الحرارة ......الخ .

لاحظ معي أن عداد السرعة مثلاً ليس له علاقة من قريب أو من بعيد في سرعة السيارة لأن السرعة تحددها دواليب السيارة فكلما زادت الدواليب دوراناً ازدادت السرعة ، فواجب العداد هو فقط قراءة هذه السرعة بطريقة ما للدلالة عليها . أيضاً الشاشة في جهاز التلفاز لا تحمل صورة بداخلها

إنما هي تقوم بقراءة وتحليل ما يحدث داخل الجهاز بواسطة الدوائر الالكترونية والتي يتم تغذيتها بواسطة دوائر كهربائية .وتلك الدوائر الالكترونية تقوم بالتقاط إشارة راديوية وتقوم بفصلها وتحليلها وتكبيرها وإدخالها إلى الشاشة لقراءتها مشكلة بذلك الصورة ، وجود هذه الصورة أيضاً يعطينا مؤشر على صلاحية القطع الأساسية الموجودة في الجهاز ، وكذلك هو الأمر بالنسبة للنفس فهي المؤشر على أحوال الأعضاء وبها تدرك حاجة العضو ، ومثال على ذلك أن ألمعده مثلاً هي التي تثير شهوة أو رغبة أو حاجة البطن ، وارى أن هذه الشهوة أو الرغبة أو ألحاجه سمها ما شئت نحصل عليها أو نشعر بها بواسطة النفس ، فالنفس هي المؤشر الذي يدلنا على الحاجة لإشباعها لأننا بواسطة هذه النفس نشعر

بالجوع كما أننا بالنفس نشعر بجميع الرغبات الأخرى فإذا ما زالت النفس أو خرجت زالت معها جميع الشهوات والرغبات التي تحتاجها جميع أعضاء الجسم وهنا لا بد لنا أن نأخذ التفسير العلمي لذلك ، فمثلاً في حالة الجوع أو الألم يقول المختصون إن العضو يقوم بإفراز أو إرسال إشارات إلى الدماغ عن طريق الأعصاب ويقوم الدماغ بدوره بتحليل تلك الإشارات التي تبين حاجة العضو ، وللأسف فإنني لم أتمكن من الحصول على مراجع علمية عن كيفية حدوث عملية النوم أو الألم أو الجوع عند الإنسان.

ما هو الفرق بين النوم والموت

لو تأملت في إنسان ميت فماذا ترى ؟

هل الموت هو نهاية الإنسان وانعدامه ؟

هل الموت هو احد مراحل الحياة ؟

هل في البرزخ حياة ؟

هل يقع عذاب القبر على الميت جسداً وروحاً ؟

إذا فني الجسد فكيف يكون العذاب بعد فنائه ؟

أسئلة كثيرة ليس سهلاً الإجابة عليها، لكنني سوف أحاول جاهداً أن أجيب في هذا الباب وما يليه على هذه الأسئلة.

أولاً الموت : فالموت هو خروج الروح من الجسد ويتبع هذا الخروج أحوال منها ، أن الإنسان إذا مات فقد فقّدَ جميع مقومات الحياة لأن روحه فارقت جسده وبالتالي فقد توقفت حركة أعضاءه جميعها فالقلب متوقف ، والدماغ متوقف ، والتنفس متوقف ، والشعور بالناس وبوجودهم متوقف ، فالإدراك بجميع هذه الأشياء يتوقف في حالة الموت ، فالميت لا يتحرك ولا يتنفس ولا يتألم ولا يعي والسبب في ذلك هو خروج الروح من الجسد ، وفي هذه الحالة يتكون الإنسان من الجسد فقط والغائب هو الروح وبالتالي فان خروج الروح يعني بالضرورة انعدام النفس وانعدام الحياة وذلك أن الحياة بحد ذاتها هي احد أعراض سريان الروح في الجسد وكذلك الأمر بالنسبة للنفس فهي أيضاً احد أعراض سريان الروح في الجسد ، والفرق بين العرضين أن أحدهما دائم والآخر منقطع . إن انعدام النفس يفقد

الإنسان جميع الغرائز وجميع رغبات الأعضاء ، واكبر دليل على ذلك أن النائم لا يشعر بالجوع أثناء نومه ، ولا يشعر بالعطش ، وليس هناك أي دافع يحرك فيه أي شهوة من الشهوات وكذلك الأمر بالنسبة للمغمى عليه لأن المغمى عليه يكون فاقداً للوعي وهو ما أميل إلى تسميته بفقدان النفس كما ذكرت سابقاً وذلك لأنني أرى أن النائم والمغمى عليه كلاهما فاقد للنفس بدليل انه لا يوجد لدى أي منهما أي نوع من أنواع الشهوات والغرائز .

فإذا كان الإنسان جائعاً أو متألماً أو حزيناً ثم نام أو فقد وعيه فقد معه شعوره بالجوع أو الألم أو الحزن وهذا يؤكد لنا أن النفس هي التي تولد الشعور بالأحوال لدى الإنسان كالسعادة ، والشقاء ، والفرح ، والحزن ، والجوع ، والألم وما إلى ذلك . فإذا ما نام الإنسان افتقد هذه الأحاسيس جميعها فأصبحت كلها بالنسبة إليه غير مدركه ، فالمتألم لا يجد الألم أثناء نومه ، والشقي لا يجد الشقاء أثناء نومه ، والحزين كذلك ، والمتعب كذلك. إن الإنسان الذي يشعر بألم في عضو من أعضاءه لا يعود يدرك ذلك الألم بمجرد أن ينام ، فهل إذا نام الإنسان برئ العضو المتألم ؟ الحقيقة أن النوم لا يشفي العضو المتألم ، فأين ذهب الألم ما دام العضو موجوداً والعلة موجودة والروح موجودة والجسم موجود ؟ إن الذي يذهب الألم هو ذهاب العنصر الحساس أو المجس والذي تظهر عليه العوارض لدى الإنسان ألا وهي النفس لأن خروجها هو الذي يفقد الإنسان جميع الأحاسيس ، فإذا ما ردت إليه نفسه بأمر من الله تعالى عادت إليه أحاسيسه ومداركه وشهواته ورغباته جميعها .

لو قمت بمراقبة إنسان ميت وآخر نائم فماذا ستلاحظ ؟ ولنبدأ أولاً بالميت ، ستلاحظ أن هناك جسد بجميع مقوماته العضوية ولكنك ستجد ذلك الجسد بارد لا يتحرك ولا يتنفس ، ولو قمت بفصل جزء منه فلن يشعر بالألم ولن يعود للحياة مرة أخرى وذلك لأن جميع أعضاء ذلك الجسد ميتة لا روح فيها وبالتالي لا حياة فيها لأن الحياة هي عرض من أعراض وجود الروح في الجسم ولا يمكن أن تكون هنالك حياة بلا روح .

أما لو قمت بمراقبة إنسان نائم فسوف تلاحظ أن ذلك الإنسان يتنفس ، ويتحرك ، وقلبه ينبض ، ودمائه تجري في عروقه ، وحرارته طبيعية ، ومع ذلك فهو لا يعي بما يدور حوله ومع ذلك فهو حي أي أن الحياة تدب في أوصاله ولكنه فاقد للإدراك فقط ، ترى ما الذي جعل هذا الإنسان بهذه الحالة بالرغم انه ليس ميتاً وجسمه كامل وعقله يعمل وقلبه ينبض فما الذي جعله غير مدرك لما يدور حوله ؟

لو قمنا بوخز هذا الإنسان بدبوس في يده مثلاً فسوف نلاحظ انه سوف يفيق مباشره وهذا يدل على أن المخ يعمل ، وان الأعصاب تعمل وتقوم بنقل الإشارة إلى المخ وهذا بحد ذاته دليل على أن الإنسان أثناء نومه لا يتوقف دماغه ، أو قلبه ، أو أعصابه عن العمل بل تكون جميعها عامله .

يعلل الطب الحديث أن عدم شعور الإنسان بالأحاسيس المختلفة أثناء النوم وحتى حالة النوم نفسها أن الدماغ يقوم بإفراز هرمونات تقوم هذه الهرمونات بالتأثير على الجسم وهي التي تحدث حالة النوم . هذه هي الإجابة التي استطعت الحصول عليها شفهياً من بعض أصحاب الاختصاص ، وللأسف لم استطع الحصول على مراجع تفصل أو تتحدث عن هذا الأمر بوضوح لأنه يهمني أن اعرف التحليل الطبي الدقيق لهذه الحالة لأستطيع الربط ما بين هذا الأمر وهو النوم مع فقدان الإدراك لدى النائم . وعلى أي حال مهما كان السبب الطبي الذي تعزى إليه حالة النوم فإنني أرى أن السبب الذي يجعل الدماغ يفرز هذه الهرمونات مرتبط بخروج النفس من الإنسان ، وأياً ما كانت الحالة التي تحدث للجسم عند النوم فهي حالة تحدث بسبب خروج النفس تؤدي إلى هذه الحالة عند البشر فسبحان الخالق العظيم .

إن الذي يجعل الإنسان يفقد مداركه جميعها هو وجود شيء مفقود يؤدي به إلى هذه الحالة ألا وهو النفس . فالإنسان مثلاً أثناء يقضته يسمع الأصوات المنخفضة فإذا ما نام

وتحدثت إلى جانبه فهو لا يسمع حديثك رغم أن صوتك مسموع ولو كان مستيقظاً لسمعك بوضوح ، ولكنه إذا ما نام لم يعد يسمع ذلك الصوت . هذه كلها أدله على أن النفس هي المدركة فإذا ما خرجت انعدم الإدراك ، فإذا ما ردت إلى الإنسان عاد الإدراك ، وهنا يطرأ سؤال وهو : ما دامت النفس غير موجودة أثناء النوم كما تقول فما هو الذي يجعل النائم يفيق إذا ما وخز بدبوس أو حرك بعنف أو سمع صوتاً عالياً ؟ وجوابي على هذا السؤال هو إن الذي يجعله يفيق من نومه في مثل هذه الحالات أن الله سبحانه وتعالى يعيد لذلك الإنسان نفسه ولو لم تعد النفس لما أفاق ، والدليل على ذلك انك تضع ساعة المنبه لتستيقظ في الصباح أو في أي وقت وغالباً فأنت تستيقظ لسماع منبه الساعة ولكنك أحياناً قد لا تستيقظ علماً أن الساعة نفس الساعة وصوت المنبه نفس الصوت ومع ذلك فأنت استيقظت أحياناً ولم تستيقظ أخرى ، والسبب في ذلك هو أن الله تعالى رد إليك نفسك في الأيام التي استيقظت بها وامسكها في الأيام التي لم تستيقظ بها .

ويدل على ذلك ما حدث لرسول الله ﷺ عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ ، حين قفل من غزوة خيبر . سار ليله حتى إذا أدركه الكرى عرّس . وقال لبلال: " اكلأ لنا الليل " فصلى بلال ما قدر له . ونام رسول الله ﷺ وأصحابه . فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر . فغلبت بلال عيناه وهو مستند إلى راحلته فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا احد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس . فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظاً : ففزع رسول الله ﷺ فقال : " أي بلال " فقال بلال : اخذ بنفسي الذي اخذ (بابي أنت وأمي ! يا رسول الله !) بنفسك . قال : " اقتادوا " فاقتادوا رواحلهم شيئاً . ثم توضأ رسول الله ﷺ وأمر بلال فأقام الصلاة [١] .

(١) مسلم ٥/ ١٥٤ .

إن الصوت الذي يجعلك تستيقظ من نومك قد لا يوقظ غيرك من نومه وكذلك وخزة الدبوس التي قد توقظك قد لا توقظ غيرك وهذه كلها تدل على أن الإنسان لا يفيق من نومه إلا إذا ردت إليه نفسه . وأعود هنا إلى القرآن الكريم لأنقل الآية الكريمة من سورة الزمر قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢] لقد ذكر رب العزة سبحانه وتعالى في الآية الكريمة انه يتوفى الأنفس وليس الأرواح وذلك برأيي لأكثر من سبب وهي أولاً : إن الأرواح ليست هي الأنفس.

ثانياً : لو أن الأرواح هي التي تقبض لما بقي عند الإنسان النائم أي بادرة من بوادر الحياة ولكان الشبه بين الميت والنائم تاماً ، وذلك لأن قبض الروح وإخراجها من الجسد يعني قبض الحياة من الجسد .

ثالثاً : لو قبضت الروح من الجسد عند كل نوم لما استطاع الإنسان تحمل ذلك لأن الروح تتشعب داخل الجسد وبما أنها تقبض فلا بد أن يشعر الإنسان بالألم عند كل نوم تبعاً لخروج الروح .

رابعاً : إن الروح قد وكل رب العزة سبحانه وتعالى بها ملكاً أو ملائكة كما ثبت ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١] . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١] .

حقيقة الروح

أما حقيقة الروح وبيان أمرها بياناً تاماً وتفصيلها تفصيلا تاماً فانه لا يستطيع احد على وجه الأرض أن يجزم جزماً قاطعاً بماهيتها وحقيقتها وذلك لأن أمرها مبهم لم يأتي فيه تفصل تام في الكتاب والسنة وحتى العلم الحديث لم يستطع الوصول إلى حقائق يقطع بها بأمر الروح وقد سئل عنها رسول الله ﷺ كما ورد في الحديث عن عبدالله ، قال : بينما أنا امشي مع النبي ﷺ في حرث ، وهو متكئ على عسيب ، إذ مر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح . فقالوا : ما رابكم إليه ؟ لا يستقبلنكم بشيء تكرهونه . فقالوا : سلوه . فقام إليه بعضهم فسأله عن الروح . قال : فاسكت النبي ﷺ فلم يرد عليه شيئا . فعلمت انه يوحى إليه . قال : فقمت مكاني . فلما نزل الوحي قال : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] (١) ، وقد ورد عن النبي ﷺ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ((الأرواح جنود مجنده فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف)) (٢) .

فبالنسبة للروح لم يفتح رب العزة سبحانه وتعالى مصارع أبواب علمها على البشر ولكنه سبحانه وتعالى أعطانا القليل من هذا العلم بدليل الآية الكريمة من سورة الإسراء ونحن نحاور فقط بهذا القليل ، لذلك فلن نستطيع التوسع بأمر الروح ، ومهما حاولنا جاهدين أن نبين ونشرح ونصف فسوف نبقى بدائرة القليل ، وسوف تبقى هناك أسئلة كثيرة مبهمة وأمور غير واضحة ، والتوضيح أو القليل سوف يكون غالباً تصوراً أو ضناً وليس قاطعاً وسوف أحاول جاهداً استثمار ذلك القليل عن طريق الآيات القرآنية الكريمة

---

(١) مسلم ١٧/ ١١٣ .

(٢) مسلم ١٩/ ١٥٢ .

والأحاديث النبوية الشريفة الواردة بهذا الشأن ، ثم أحاول بعدها تصور حقيقة أو ماهية الروح .

الحقيقة الأولى هي : أن الروح اختصاص رباني من قدرة الله سبحانه وتعالى وحده ، ومع أنها قدره ربانية إلا أن تلك القدرة قد منحها رب العزة سبحانه وتعالى بأمره إلى الملك الموكل بالرحم لينفخها نيابةً عن الله سبحانه وتعالى ، والدليل على ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى في سورة السجدة عن الإنسان قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾[السجدة: ٧ – ٩] ، هذه الآية الكريمة تتحدث عن الإنسان الأصل وهو آدم عليه السلام والذي كان ابتداء خلقه من الطين ، فأول الخلق هو الكتلة الطينية ، ثم التسوية ثم التعديل مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[الانفطار: ٦ – ٨] .

وفي آية أخرى قال تعالى : ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ [التين: ٤] ، فالروح مخلوقة بالقدرة المباشرة أو الموهوبة [1] ، وذلك لأن قدرة الله تعالى متعددة كالنفخ والأمر

---

(١) قصدت بالقدرة المباشرة : أي القدرة التي يباشرها رب العز سبحانه وتعالى بنفسه كما هو الأمر بالنسبة لخلق آدم عليه السلام ، فقد خلقه الله تعالى وسواه بيده ونفخ فيه من روحه فباشر جل في علاه الخلق بنفسه ، وهنا يجب أن لا يفوتنا أمر وهو : أن قدرة الله سبحانه وتعالى لها أكثر من صورة، ومن تلك الصور التي تحضرني هنا صورة المباشرة والتي سبق وذكرتها ، وهناك صورة أخرى وهي الإرادة كما هو الأمر بالنسبة لذرية آدم عليه السلام لأن خلق الإنسان من التزاوج له أكثر من مرحلة ، تلك المراحل تتكون بإرادة الله سبحانه وتعالى ، ومن صور الخلق أيضاً الخلق بالكينونة أي بأمر الشيء أن يكون فيكون مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ وهناك أيضاً صورة أخرى للخلق وهي قدرة الله تعالى أن يخلق بالنفخ لأن الروح خلقها الله تعالى بواسطة النفخ ، =

والإرادة ، فالجسد مخلوق بقدر مسنون بتدبير الله تعالى ، وعيسى عليه السلام كجسد مخلوق بقدر الكينونة الرباني ونلاحظ من خلال القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى في خلق آدم قد أضاف نفخ الروح إليه فقال تعالى : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢] .

ومن خلال الآيات الكريمة الواردة في هذا الشأن نستطيع أن نستخلص أن الروح هي احد قدرات الله سبحانه وتعالى والتي يخلقها بالنفخ ، وهذه القدرة هي قدره ممنوحة أيضاً واقصد بذلك أن الله سبحانه وتعالى يمنحها أحياناً للمخلوقات كالملائكة والبشر لتكون معجزة بالنسبة للبشر ، أما بالنسبة للملائكة فقد منح رب العزة سبحانه وتعالى تلك القدرة للملك الموكل بالأرحام والذي ورد في الحديث الشريف وفيه ((ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح)) فهذا الملك موكل من الله سبحانه وتعالى وبأمره بنفخ الروح ، وكذلك فقد منح الله تعالى تلك القدره لعيسى عليه السلام ودليله قوله تعالى : ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩] ، ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ﴾ [المائدة: ١١٠] . هذه كلها أدله بان الروح تتولد أو

= فبمجرد أن نفخ سبحانه وتعالى في آدم تخلقت فيه الروح . وقد اختلف في روح آدم عليه السلام فقال بعضهم ما دامت روح آدم هي نفخة من الله فهذا يعني أنها ليست مخلوقة ، لأن الله تعالى هو الخالق وهو الأزلي وهو الأول والآخر وما دام الأمر كذلك فهذا يعني أن الروح أزلية وليست مخلوقة وارى أن الأسلم للخروج من الجدل العقيم هو القول أن الروح ليست هي جزء من الله سبحانه وتعالى وإنما هي من إرادته وخلقه وتخلق بالنفخ ، أي أن النفخ كان سبب لإيجاد الروح ، وأكبر دليل على ذلك أن الله تعالى قد وكل ملكاً لنفخها في ذرية آدم .

تخلق من النفخ بإرادة الله سبحانه وتعالى . أما بالنسبة لآدم فان خلق روحه كان بنفخ الروح فيه من الله سبحانه وتعالى مباشرة وليس بالواسطة كما هو الأمر بالنسبة لجميع البشر بعد آدم والى قيام الساعة والله تعالى اعلم .

خلاصة الباب

أحببت في ختام هذا الباب أن الخص للأخ القارئ أهم المضامين التي قصدتها في هذا الباب وهي كما يلي :

* يتكون الإنسان من أربعة عناصر ، وتلك العناصر هي جوهران ، وعرضان . أما المقصود في الجوهر : فهو الشيء القائم بنفسه . أما العرض فهو : ما ظهر لسبب ، أي انه الشيء القائم بغيره . أما الجوهران في الإنسان فهما الروح والجسد ، والعرضان هما النفس بمفهومها الخاص وهو ناتج سريان الروح في الجسد . والعرض الثاني هو الحياة وهي أيضاً عرض ناتج عن سريان الروح في الجسد .

* النوم : هو عبارة عن حالة معينه تحدث للإنسان بسبب فقدان عرض النفس ، وهو أي النوم يحدث بقدره إبداعية ربانية ويسببه قبض النفس من قبل الله تعالى مما يؤدي إلى انعدام الإدراك وفقدان الوعي لدى الإنسان ، مما يؤدي إلى فقدان حاجات وشهوات الأعضاء جميعها ، وهذا هو الذي يجعل الإنسان النائم يفقد كل ما كان يشعر به أثناء اليقضه من حزن أو فرح أو الم أو جوع أو خوف ....الخ من تلك الأحاسيس .

* النفس : وهي بالنسبة لي تحمل مدلولأن . الأول : هو المدلول الخاص وهو ناتج سريان الروح في الجسد ، والنفس بالمفهوم الخاص هي المجس الذي تظهر عليه عوارض وحاجات الأعضاء جميعها . المدلول الثاني : وهو المدلول العام والذي اقصد فيه الإنسان بكامل كيانه وجوارحه .

* المكونات : يتكون الإنسان من ثلاثة حالات وهي :

أولاً : الحالة التامة وهي حالة الإنسان الحي المستيقظ (حالة الحياة التامة) وفي هذه الحالة فان مكونات الإنسان وموجوداته هي العناصر الأربعة وهي الجسد ، الروح ، النفس ، الحياة

ثانياً : الحالة الوسطى وهي حالة الإنسان الحي النائم ، أو المغمى عليه (وهي حالة فقدان النفس ، أو اللاموت واللاحياة ، أو وفاة النوم) وفي هذه الحالة تكون مكونات الإنسان وموجوداته ثلاثة عناصر وهي جوهران وعرض واحد ، أما الجوهران فهما الروح والجسد وأما العرض فهو الحياة والمفقود في هذه الحالة هو عرض النفس بمفهومها الخاص .

ثالثاً : الحالة الأخيرة وهي حالة الإنسان الميت أي حالة (الموت) وفي هذه الحالة فان مكونات الإنسان وموجوداته هو عنصر واحد وهو جوهر الجسد فقط ، والمفقود هو جوهر الروح والذي يؤدي فقدانه إلى فقدان العرضان معاً وهما النفس والحياة .

* أما مفهومي وتصوري الشخصي للروح فهو : أن الروح جوهر ذا عرض وطول وعمق تماماً كالجسد ، ويحل ذلك الجوهر في الجسد بنفس أبعاد الجسد ومقاييسه . والحياة عرض من أعراض ذلك الجوهر ، فأينما حل جوهر الروح داخل جوهر الجسد حلت الحياة ، وإذا ما انقطع عضو من أعضاء الجسد انحصر عنه جوهر الروح وبالتالي ينحصر عنه العرض التابع وهو الحياة ، وإذا ما ضعف أو مات عضو من الأعضاء انحسرت عنه الروح وبالتالي تنحسر عنه الحياة والنفس كما هو الأمر عند بعض الناس ممن تموت كعوب أرجلهم من الأسفل بحيث انك لو قطعت جزءاً من ذلك المكان لما شعر صاحبه في الألم ، مما يدل على أن الحياة منحسرة عن ذلك المكان ، وماء الحياة مفقود منه ، فلا يؤدي ذلك القطع لنزف الدم . أما النفس فوجودها مرهون بوجود جوهريها الأساسيان وهما الروح والجسد ، وذلك فقط في

حالة الصحو ويزول ذلك العرض بالنوم ، فإذا ما قبض الله سبحانه وتعالى بقدرته وحكمته وإرادته وبديع صنعه ذلك العرض حصل

النوم ، أي أن زوال ذلك العرض هو الذي يؤدي إلى النوم وعودة ذلك العرض يؤدي إلى اليقضه .

* الروح : ليس بالضرورة أن تكون هي ذاتها النفخة التي نفخها رب العزة سبحانه وتعالى في آدم بعد خلقه ، فقد تكون ألنفخه هي السبب في إيجاد الروح ، أي أن الروح تخلقت بسبب أو بإسلوب النفخ كما هو الأمر بالنسبة للبشر في السنة في وجودهم حيث وكل رب العزة سبحانه وتعالى ملكاً من الملائكة لينفخ فيهم الروح بأمره سبحانه وتعالى ، وكما هو الأمر بالنسبة لعيسى عليه السلام عندما كان ينفخ في الطير المصنوع من الطين فيحيى بإذن

الله تعالى . والله تعالى اعلم وهو ولي التوفيق .

تفسير آية

وحديث الشك

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] ، هل حقاً شك إبراهيم عليه السلام ذلك الشك الذي قد يتبادر إلى الذهن عند تلاوة الآية الكريمة بأنه عليه السلام شك بقدرة الله على إحياء الموتى ؟ والجواب على ذلك قطعاً لا ، لأن من عرف الله سبحانه وتعالى تلك المعرفة التي عرفها إبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يتطرق لنفسه الشك بقدرة الله تعالى .

فكيف يشك من قارع النمرود بقدرة الله تعالى على إحياء الموتى فهل يعود بعد ذلك للشك بقدرة الله تعالى ، ومن ثم لو أن إبراهيم عليه السلام كان شاكاً بالقدرة فان الله سبحانه وتعالى عالمٌ بما في نفس إبراهيم ، فلو انه شك في قدرة الله على إحياء الموتى لختمت الآية بالقول (واعلم أن الله على كل شيء قدير) لأن منطق اللغة الطبيعي والسليم في إجابة ألشاك أن يكون بتأكيد القدرة في نهاية الكلام ، وعليه فان اختتام الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وحدها دليلٌ واضح على إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكاً أبداً بقدرة الله تعالى على إحياء الموتى . لقد ورد في الحديث الصحيح عن هذه الآية الكريمة وآيتين أخريين والتي تحدثت عن لوط ويوسف عليهما السلام عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ((نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ

تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ ﴾ ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي))(١) .

نلاحظ في هذا الحديث النبوي الشريف إشارة واضحة جلية لثلاث آيات وردت في القرآن الكريم وهي الآية المذكورة من سورة ألبقره ، والثانيـة من سورة هود قوله تعالى نقلاً عن لوط عليه السلام : ﴿ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴾ [هود: ٨٠] .

أما الآية الثالثة فهي قوله تعالى عن يوسف عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف: ٥٠] .

وقد أورد القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن عن الحديث الشريف قال : (معناه انه لو كان شاكاً لكنا نحن أحق به ونحن لا نشك فإبراهيم عليه السلام أحرى ألا يشك ، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم . أ هـ)(٢) .

أقول بعد أن أفوض العلم والأمر لله تعالى إن هذا الحديث واضح وضوح الشمس في كبد السماء فهو يؤكد الشك في حق إبراهيم عليه السلام ولا ينفيه ، وارى أن الأسلم أن ناول الشك لا أن ننفيه ثم إذا قمنا بنفي الشك بحق إبراهيم عليه السلام فماذا عسانا نقول في بقية الحديث الشريف هل ننفيه أيضاً ؟ أما الحقيقة التي أراها واضحة فهي أن هذا الحديث الشريف يبين أموراً ومنها أن الرسل عليهم السلام ليسوا ملائكة إنما هم بشر ، وليست جميع تصرفاتهم بوحي من الله تعالى ، وهم أيضاً ليسوا جميعا بنفس المستوى في نضرتهم للأمور وتصرفهم بها وتقديرها ، فهذا يوسف عليه السلام قد رد الرسول وأبى أن يخرج معه حتى تثبت برأته أمام الجميع ، أما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فلو كان صاحب ذلك الموقف لما

---

(١) مسلم ١٥/ ١٠١ .

(٢)الجامع لأحكام القرآن ج٣ ص٢٩٨

رد الرسول ، وربما كان ذلك لغاية أسمى يراها سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم كأن تكون الاستعجال في نشر الدعوة وتبليغها ومع ذلك فيوسف عليه السلام لم يخطئ عندما رد الرسول ولو أجابه أيضاً لم يخطئ ولكن يوسف عليه السلام اخذ بما يراه أولى ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يأخذ بما يراه أولى ، وعليه فإننا لا نستطيع أن ننفي صفة البشرية عن أنبياء الله عليهم صلوات الله تعالى وسلامه لأنهم ليسوا ملائكة بل هم بشر من خلق الله يفرحون ويحزنون ويخافون ا يفكرون ويقيسون ومع ذلك فهم معصومون ، ومن كان بشراً لا نستطيع أن ننفي عنه الخطأ مطلقاً ولكن أخطاء الرسل ليست كأخطاء بقية البشر لأنهم معصومون عن الأخطاء التي تؤثر على العقيدة وعلى الرسالة ومعصومون عن كل فعل فيه رذيلة ولكنهم مع ذلك بشر يصيبون ويخطئون ، ويتألمون ويخافون .. إلخ من الصفات التي يتمتع بها البشر لأننا إذا قمنا بنفي حتى الأخطاء البسيطة عن الرسل فنحن بذلك ننفي عنهم صفة البشرية ونجردهم منها ونخلع عليهم رداء الملائكة ، ولا يمكن أن يكون ذلك لأن الرسل بشر من بني آدم .

وكما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ((كل ابن آدم خطاء وخير الخطاءين التوابون)) فالحديث الشريف أجمل كل بني آدم ولم يستثني أحداً ، والأنبياء منهم ولا احد يستطيع أن ينفي بشرية الأنبياء ، ومن لم تنتفي عنه البشرية لا نستطيع أن ننفي عنه الخطأ مطلقاً ، فهناك أخطاء وقعت من الرسل الكرام عليهم السلام وعاتبهم عليها رب العزة سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ومع ذلك فتلك الأخطاء لم تؤثر على العقيدة ولم تؤثر على الرسالة التي بعثوا بها ولا حتى على كرامة وشرف وعفة وأخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنها لم تكن أخطاء شائنة أو فادحه ولكنها مع ذلك تعد أخطاءاً أو كما قال العلماء عدم الأخذ بالأولى لأن الأنبياء لا يمكن أن يصلوا إلى درجة الكمال وذلك أن الكمال لله تعالى وحده ، ونحن لا نقدح بكرامة وعفة الأنبياء كما فعل بنو إسرائيل ، ولكن يجب علينا أيضاً أن لا ندعي لهم الكمال وننزع عنهم صفة البشرية إلى الدرجة التي نؤلههم فيها أو نجعل منهم

ملائكة إنما هم صفوة البشر وأكملهم على الإطلاق فلا ننزل بهم عن هذه المرتبة ولا نرفعهم فوقها .

من الأمثلة على بعض الأخطاء التي سجلها القرآن الكريم على الرسل الكرام على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [طه: ٦٥ – ٦٨] ، أولم يكن خوفه عليه السلام وهو المرسل من الله وكليمه والذاهب إلى إثبات انه رسول من الله لفرعون وقومه أولم يكن خوفه ذلك خطاءً وهو صاحب البرهان والدليل والحجة الدامغة ، إن تخيله وخوفه عليه السلام دليل على بشريته لأنه لو لم يكن كذلك لما خاف ولما خيل إليه .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في كتاب الله عن لوط عليه السلام عندما جاءته الملائكة على هيئة ضيوف وجاء قومه يريدون أن يفعلوا بهم الفاحشة فقال عليه السلام لضيوفه قبل أن يعلم أنهم ملائكة قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: ٨٠] ، أولم يكن عليه السلام يأوي إلى ركن الله ؟ أولم يكن رسول الله ؟ ومع ذلك فقد كان عليه السلام بشر ، وبما انه كذلك فهو يخاف شأنه شأن البشر ، ومهما كانت صفة الإنسان فانه إذا ما تعرض لموقف كهذا لا بد أن يتسلل الخوف إلى نفسه ، فهؤلاء ضيوفه وقد جاء قومه للإساءة لهم والاعتداء عليهم وهو لا يملك القوة الحسية لمنعهم وردعهم وفي نفس الوقت فهو لا يعلم الغيب ويقيس الأمر من منطلق الوضع الراهن الذي كان فيه فكيف لا يخاف عليهم ويتمنى طريقة يستطيع أن ينقذهم بها ؟.

فقد كان عليه السلام في موقف عصيب شديد هذا الموقف أنساه أن يتوجه إلى الله تعالى فقاس الموقف بحسب الوضع الذي كان فيه فقال ما قال ، فلم يكن عليه السلام غير واثق بقدرة الله تعالى ولكن هول الموقف أنساه أن يتوجه إلى الله تعالى وهذه الصفة وهي

النسيان مر بها آدم عليه السلام ودليله قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥] . ومر بها يوسف عليه السلام ودليله قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: ٤٢] ، ومر بها محمد صلى الله عليه وسلم ودليله قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ٢٣ – ٢٤] ، ومن ذلك أيضاً ما جاء عن يونس عليه السلام قول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأنبياء: ٨٧] .

أولم يكن غضبه عليه السلام من قومه لأنهم لم يستجيبوا لرسالته وخروجه من بين ظهرانيهم دون أمر من الله تعالى خطاءً يدل عليه اعترافه عليه السلام بقوله (إني كنت من الظالمين) هذه كلها أدلة ساطعة تدل على أن الرسل عليهم السلام قد ارتكبوا أخطاءً ، ولم آتي بها لأنقص من شأن الأنبياء حاشا وكلا ولكنني أتيت بها حتى لا نؤله الأنبياء فنقع بما وقع به النصارى عندما ألهو عيسى عليه السلام ، واتيت بها أيضاً لئلا نكون من المكذبين بآيات الله سبحانه وتعالى وبالقرآن الكريم الذي اثبت بشرية الأنبياء ، واتيت بها أيضاً لكي لا ننفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ونرده فنرد عن حوضه ﷺ.

كذلك هو الأمر بالنسبة لإبراهيم عليه السلام فهو بشر شأنه شأن البشر ، وكذلك هم رسل الله جميعاً عليهم السلام مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣] ، تلك البشرية للأنبياء كانت في كثير من الأحيان سبباً وحجه لجحود كثير من الناس برسالة الأنبياء عليهم السلام مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[الإسراء: ٩٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾[المؤمنون: ٣٣ – ٣٤] .

نحن أصحاب القرون المتأخرة من امة محمد صلى الله عليه وسلم لم نشاهد أحداً من الأنبياء أبداً ، لذلك فإننا غالباً ما نتصور الأنبياء بحسب ما جاء عنهم في القرآن الكريم ، أو في الأحاديث النبوية الشريفة والتي تصورهم بصفات عظيمة لم نعهدها في البشر ، لذلك فان الصورة التي نكونها عن الرسل الكرام عليهم السلام هي في الغالب صورة الكمال المطلق علماً بان القرآن الكريم والسنة المطهرة لم تصور الأنبياء الكرام بصورة الكمال المطلق ، أما السبب الذي يدعونا لتكوين تلك الصورة هي أننا في الأصل لم نرى نبياً من الأنبياء الكرام لذلك فان الصـورة التي يكونهـا الإنسان السامع تختلف عن تلك التي يكونها المشاهد والمعاصر وذلك لأن السماع ليس كالمشاهدة والمعاصرة ، لذلك فإن الصورة التي يتخيلها الإنسان تكون بناءاً على قناعته وأفكاره هو في الغالب .

أما بالنسبة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكل المؤمنين متفقون على أنهم أصحاب أخلاق عظيمة كريمة وهم صفوة البشر وخيرهم بشهادة الله تعالى ، ولكن الفارق أن البعض يكون صورة الكمال للرسل الكرام وكأنهم ليسوا بشراً وهذه الصورة قد نفاها رب العزة سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عندما أكد في كثير من الآيات على بشرية الأنبياء ، لذلك فإن الصورة الحقيقية للأنبياء والرسل الكرام هي أنهم بشر أولاً وقبل كل شيء يعتريهم ما يعتري البشر فهم يفرحون ويحزنون ويخافون ولكنهم معصومون مختارون من الله تعالى فهم أكمل واشرف البشر على الإطلاق وقد قدمت الآيات الكريمة بشريتهم على رسالتهم وذلك لأنهم بشر قبل أن يوحى إليهم وبشر بعد أن أوحي إليهم فالبشرية هي الأصل والرسالة هي الاختصاص .

من هنا نستطيع القول أن إبراهيم عليه السلام كان في نفسه شك عندما سأل الله سبحانه وتعالى أن يريه كيفية الأحياء ، ولكن ذلك الشك الذي كان عند إبراهيم عليه السلام ليس هو الشك الذي قد يفهم على انه شك في قدرة الله على الإحياء ولكنه شك من نوع آخر يتعلق بالكيفية وليس بالقدرة ، وكأنه عليه السلام كان يدور في خلده شك عن الكيفية

وبالذات عن كيفية معينه ، فلو أن إبراهيم عليه السلام شك في القدرة لقال في معرض طلبه (ربي ارني قدرتك على إحياء الموتى) ولكنه عليه السلام لم يقل ذلك لأنه لا يشك فيه ويعلم أن الله تعالى قادر على إحياء الموتى ولكنه قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وكأنه يقول : (يارب أنا اعلم انك قادر على إحياء الموتى ولكني لا أستطيع أن أدرك كيفية حدوث الأمر فارني كيفية حدوث ذلك الأمر لأطمئن للكيفية كما اطمأننت للقدرة) .وكأن هناك حالة معينه بالنسبة للأموات وكيف سيتم أحيائهم وكأن إبراهيم عليه السلام كان يفكر بمن يموت ويذهب أشلاءً كمن يقتل وتقطع أشلائه وتكون متباعدةً عن بعضها البعض أو تأكله السباع فتصبح أشلائه في أمكنة شتى فكيف ستجتمع هذه الأشلاء مرة أخرى ، والدليل على ذلك هو الأمر الذي أعطاه رب العزة سبحانه وتعالى لإبراهيم بقوله تعالى : ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] ، فلماذا جاءه الأمر بهذه الصورة بان يقطع تلك الطيور أشلاء ويضع كل جزء على جبل ؟ لماذا لم يأت الأمر لإبراهيم عليه السلام أن يقتل تلك الطيور ويضعها أمامه مثلاً ويأمرها بالحياة ليرى كيف ستحيا ؟.

والجواب على ذلك هو أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يشك أبدا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى بل كان في ذهنه تصور آخر لأنه عليه السلام بشر ويفكر بمنطق البشر وبعقل البشر فإبراهيم عليه السلام امتاز بأسلوبه الرائع في الدعوة والذي يعتمد العقل واستخدام الدليل العقلي والحجة والبرهان والتميز والإبداع في الدعوة وفي مقارعة الخصم بالحجة والإبهار بحيث يترك خصمه مبهوراً في أسلوبه وقدرته فأراد عليه السلام أن يعرف الكيفية التي يتم بها إحياء من مات وتفرقت أشلائه كيف ستجتمع بعد تفرقها في أمكنة شتى فلم يستطع عليه السلام أن يدرك ببشريته وبعقله الفذ الذي كان يعتمده في كل الأمور كيف سيتم الأمر فطلب رؤية الكيفية ، وقد كان عليه السلام جريئاً في طلبه ذلك جرأه تدل على رجاحة عقله وسلامة تفكيره ، ومع ذلك فقد كانت جراءته عليه السلام جرائه في الحق ،

ولأن الله تعالى يعلم غايته وقصده من ذلك السؤال ومن ذلك الطلب لبى له طلبه الجريء فأعطاه سبحانه وتعالى مثلاً على ذلك بالأمر الذي صدر إليه بقتل الطيور الأربعة وتقطيعها إرباً ونثرها على الجبال أشلاءً مقطعه ثم دعوتها ليرى بأم عينيه كيفية حدوث العملية المعقدة التي لم يستطع الاطمئنان إليها رغم إيمانه بها ، لذلك نستطيع القول أن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكاً بقدرة الله تعالى على الإحياء إنما شك بقدرته هو عليه السلام على إدراك وفهم قدرة الله تعالى وبالذات لمن تفرق أشلاءً كيف سيعود ويجتمع ويحيا . وقد أورد القرطبي في تفسيره الجامع ج١ ص٣٠٠ أكثر من رأي في تفسير الآية الكريمة ومنها قوله : قال الحسن : رأى جيفه نصفها في البر توزعها السباع ونصفها في البحر توزعها دواب البحر ، فلما رأى تفرقها أحب أن يرى انضمامها فسأل ليطمئن قلبه برؤية كيفية الجمع كما رأى كيفية التفريق أ هـ .

من هنا نستطيع القول إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في نفسه شك عندما سأل الرؤية ولكن ذلك الشك ليس هو الذي قد يفهم منه إن إبراهيم عليه السلام قد شك في قدرة الله تعالى على الإحياء ، ولكنه عليه السلام كان يشك في قدرته هو على استيعاب كيفية معينه للإحياء وهي تلك التي تحدثت عنهما سابقاً والتي أوردها بعض المفسرين ، وعليه فإننا يجب أن نركز على بشرية الأنبياء في طرح هذا الموضوع لأن الأنبياء بشر كغيرهم ولكنهم معصومون وملهمون من الله سبحانه وتعالى وهذا هو الذي يميزهم عن بقية البشر ، وهنا لا بد من الحديث عن قصة موسى عليه السلام ، فماذا عسانا نقول عنه عليه السلام عندما قدم إلى البحر واتبعه فرعون فما هي تلك الثقة التي كان يتحدث بها وهو أمام خيارين لا ثالث لهما في المقاييس البشرية المادية ؟ وإذا كان لديه كل تلك الثقة بالله تعالى فما الذي دعاه للخوف عندما حدث الامتحان ما بينه وبين السحرة حتى أوجس خيفة في نفسه ؟ السبب في ذلك انه عندما كان أمام السحرة كان لا يزال حديث عهد بالرسالة اولاً ، وثانياً لم يكن يعلم ما سيحدث بعد ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لم يطلعه على الغيب ، أما عندما خرج ببني

إسرائيل إلى البحر فقد كان راسخ القدم في الرسالة وأيضاً كان يعلم ما ستؤول إليه الأمور بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٧٧] ، لذلك فعندما وصل إلى شاطئ البحر قال الملأ الذين معه من بني إسرائيل كما قص رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦١ – ٦٢] .

لو أردنا أن نعقد مقارنة بين هذا الموقف وموقف موسى عليه السلام أمام السحرة فسوف نجد أن هذا الموقف هو أكثر صعوبة من موقفه أمام السحرة وذلك لعدة أسباب أولها انه عندما كان أمام السحرة كان في بداية الرسالة أي لم يكن له أتباع كثر في ذلك الموقف كما كان له أتباع عندما خرج إلى البحر والثاني انه كان في موقف محاججه كلامية أمام السحرة والناس بينما كان في موقف استباحة دمه ودماء من معه من بني إسرائيل عندما اتجهوا إلى البحر ومع ذلك فقد خاف عندما كان في موقفه أمام السحرة بينما لم يتسلل الخوف إلى قلبه وفرعون وجنوده يطاردونه ومن معه من بني إسرائيل لقتلهم وارى أن السبب في ذلك انه لم يكن يعلم ما ستؤول إليه الأحداث بعد أن رأى سحر السحرة بينما كان يعلم ما ستؤول إليه الأحداث عندما توجه إلى البحر ، فعندما جاء موسى عليه السلام بالرسالة الربانية أنكر عليه فرعون ذلك فقال كما اخبر بذلك رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾[القصص: ٣٨] ، وهنا أراد فرعون وسحرته أن يبطلوا مزاعم موسى وأراد موسى عليه السلام أن يبطل مزاعم فرعون وسحرته وفي ذلك الموقف كان موسى عليه السلام يتصرف ببشريته وليس بوحي من الله تعالى وذلك لأن الوحي من الله كان يأمره أن يذهب إلى فرعون ويدعوه إلى الإيمان بالله قال تعالى : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه: ٢٤] ، وفي آية أخرى قال تعالى : ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه: ٤٢ – ٤٣] .

نلاحظ من خلال الآيات الكريمة أن الأمر والوحي من الله تعالى لموسى وهارون بالذهاب إلى فرعون لدعوته باللين والحسنى وليس بالشدة والعنف فلم يأمرهما بالذهاب والدعوة فقط ولو كان الأمر كذلك وترك لهما تقدير الأمور فربما دعياه بالشدة والعنف ، ثم أوحى لهمـا سبحانـه

وتعالى أيضاً ما سيقولانه لفرعون : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ [طه: ٤٧] ، وهنا بدأت المحاججه البشرية ، فرعون بما معه من عقل وسلطه وجبروت ، وموسى وهارون بما معهما من عقل وحجة وبرهان ، وعندما بدأت المحاججة بين الطرفين كانت محاججة بشرية ، فلم يوحي الله تعالى لموسى بالجواب بان قل له كذا وكذا بل أمره بالذهاب والدعوة باللين وترك له محاججة فرعون بما معه من العلم والحجة والبرهان ولكن فرعون لم تقنعه الحجج والبراهين وادعى أن هذا كله ليس سوى سحر .

وما دمت قد أتيت لإخراجنا من أرضنا بما معك من السحر فنحن أيضاً سنأتيك بسحرنا لنرى أي السحرين هو الأقوى وطلبوا من موسى عليه السلام أن يعطيهم موعداً للمحاججة وليدلي كل من الفريقين بدلوه فأعطاهم موعداً يتفق مع المناسبة وكان ذلك الموعد من موسى عليه السلام دون وحي من الله تعالى بل كان اختيار الموعد متروكاً لموسى عليه السلام ورأى أن الموعد المناسب هو يوم الزينة وهو يوم عيد أو ما شابه يجتمع فيه الناس بالسوق وذلك لتكون المحاججة أمام الناس لينشر موسى عليه السلام رسالته . ويأتي الموعد ويجتمع الفريقان للإدلاء كل بدلوه و موسى عليه السلام لا يعلم بما سيحدث بعد ذلك لأنه بشر مرسل من عند الله تعالى ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه عليه رب العزة سبحانه وتعالى ، فلم يوحي الله سبحانه وتعالى له بما سيحدث بعد ذلك ، فهو يتصرف بمنطق وعقل البشر مع علمه بان الله تعالى معه ولن يخذله وهنا يأتي دور المحاججة والتصرف البشري من كلا الطرفين ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ ، ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ

﴿ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ ، سأل السحرة موسى عليه السلام أتلقي أنت أولا أم نلقي نحن ؟ فأجابهم بان يلقوا هم أولا وفعلاً القوا ما معهم من حبال وعصيّ وخيل لموسى عليه السلام ولمن حضر ذلك الموقف أن الحبال والعصيّ قد أصبحت حية تتحرك وهنا لم يكن الموقف سهلاً بالنسبة لموسى عليه السلام لأن ما رآه أمام عينيه شيء غير عادي وهو يتصرف ويحس ويرى ويعمل بمنطق البشر فالسحرة قد أدلوا بدلوهم فإذا بالدلو ليس فارغاً بل فيه عصي وحبال تحولت إلى حيات وهذه حجة السحرة قد رآها أمام عينيه وأدركها بعقله أنها حجة قوية ومقنعه على الأقل للناس الذين يحضرون الموقف .

ترى عندما حدث ذلك لموسى هل كان بشراً كغيره من البشر أم كان غير ذلك ؟ نعم لقد كان بشراً يتصرف تصرف البشر ويرى ما يرون ، ترى الم يكن الله تعالى قادرٌ على أن يكشف الحجاب عن بصره فلا ينخدع بما ألقى السحرة بل يراه على حقيقته ؟ اجل الله تعالى قادر على ذلك ومع ذلك لم يعطه الله تعالى تلك الميزة دوناً عن البشر الذين حضروا ذلك الموقف بل كان مثلهم يرى ما يرون ، ترى الم يكن الله تعالى قادرٌ على إبطال عمل السحرة وإبقاء العصي على حالها فلا يتراءى لمن يراها أنها تغيرت ؟

الله سبحانه وتعالى قادر على ذلك ومع ذلك فلم يبطل عمل السحرة بل جعله يجري مجرى العادة وذلك لتتم المحاججة بين الطرفين ، وعندما رأى موسى عليه السلام ما عند ألسحره تسلل الخوف إلى قلبه لأن ما رآه شيء مؤثر وهو الأن الخصم لأؤلئك ألسحره فعندما رأى أن حجة خصمه قوية تسلل الخوف إلى نفسه فلماذا خاف موسى عليه السلام ؟ لقد خاف لأن الخصم قد عدوا حجتهم واثبتوا للناس أنها حجة قوية وهو عليه السلام لم يعد حجته الأقوى بعد ليدحض حجتهم ، ولأنه أيضاً لا يعلم ما ستؤول إليه الأمور لأنه يتصرف بمنطق البشر وبعقل البشر وهنا من الطبيعي أن يخاف لأن الله تعالى لم يوحي إليه ماذا سيحدث بعد ذلك ولو كان عليه السلام يعلم ما سيحدث بعد ذلك لما خاف أبدا ، وهنا يتدخل رب العزة سبحانه وتعالى ﴿قلنا﴾ فلمن كان القول وممن ؟ لقد كان من الله تعالى

لموسى عليه السلام : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٨ – ٦٩] ، فكان موسى عليه السلام قبل رؤية العصي وهي تنقلب إلى أفاعي يتصرف ويناقشهم ويقارعهم ويجادلهم بمنطقه البشري ويقارعهم بذلك المنطق إلى أن رأى الحجة التي يدعونها ورأى نتيجتها فخاف وصمت بينما كان يناقش ويقارع قبل ذلك ، فهو الذي أعطاهم الموعد وكان ذلك بتقديره الشخصي وكذلك عندما سألوه من يلقي أولاً كان ذلك بتقديره الشخصي ولكنه عندما رأى النتيجة صمت وتوقف عن المحاجحة لأنه وصل إلى نقطة حاسمة في الأمر فتسلل الخوف إلى نفسه ، وسبحان الله العظيم فان الإنسان إذا ما خاف تجد أن الوهن يتسلل إلى عزيمته مباشرة فلا يعود بنفس القوة التي كان عليها .

عند هذه النقطة صمت موسى عليه السلام ولم يدري ماذا سيفعل بعد ذلك إلى أن نزل عليه الوحي ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ وفعلاً ألقى موسى عصاه فابتلعت عصي وحبال ألسحره فسجد السحرة لله وآمنوا بما جاء به موسى .

لهذا فإنني أركز تركيزاً شديداً على بشرية الأنبياء وان لا نفصلهم أبدا عن بشريتهم فهم أولاً بشر ثم اصطفاهم رب العزة سبحانه وتعالى من جملة البشر ليكونوا حملة رسالته إلى الناس واتاهم العلم فكانوا يفكرون ويقيسون ويشعرون كبشر فكانوا إذا ما حدث لهم أمر فكروا بعقولهم البشرية التي لم تحط علم كل شيء وكان يدعم تلك العقول الوحي الرباني ، فعندما كان تفكيرهم بشرياً بطبعه بعقول البشر التي لم تتسع علوم كل شيء كانوا يشعرون بشعور البشر فيخافون مما يحدث ثم يأتيهم التثبيت على الصواب من الله سبحانه وتعالى ، وكذلك فان الأنبياء مع أنهم رسل الله إلا أنهم لم يكونوا جميعاً بنفس المستوى بل كان بعضهم أفضل شأناً من بعض مصداقاً لقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ

ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾[الإسراء: ٥٥] ، وقد كان أفضلهم وأعلاهم منزلة هو محمد بن عبدا لله صلى الله عليه وسلم فقد جعله الله سبحانه وتعالى سيد ولد آدم والشفيع والذي يحمل لواء الحمد وما من نبي منذ آدم إلا تحت لوائه صلى الله عليه وسلم كما ثبت ذلك في حديث الشفاعة ومع ذلك فانه صلى الله عليه وسلم قد حدث عن بشريته بنفسه فقد ورد في الحديث عن موسى بن طلحه عن أبيه قال : مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل فقال : " ما يصنع هؤلاء ؟ " فقالوا : يلقحونه . يجعلون الذكر في الأنثى فيلقح . فقال رسول الله ﷺ " ما اضن يغني ذلك شيئاً " قال فاخبروا بذلك فتركوه . فاخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال : " إذا كان ينفعهم ذلك فليصنعوه . فاني إنما ضننت ضناً . فلا تؤاخذوني بالضن . ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فاني لن اكذب على الله عز وجل "[١] وعن رافع بن خديج قال : قدم نبي الله ﷺ المدينة . وهم يأبرون النخل . يقولون يلقحون النخل . فقال : " ما تصنعون ؟ " قالوا كنا نصنعه . قال : " لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً " فتركوه . فنفضت أو فنقضت . قال فذكروا ذلك له فقال : " إنما أنا بشر . إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به . وإذا أمرتكم بشيء من رأيي . فإنما أنا بشر "[٢] ومع ذلك فهو سيد ولد آدم كما ثبت في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة . وأول من يشق عنه القبر . وأول شافع وأول مشفع "[٣] .

فما هو السبب في ذلك التفضيل لرسول الله ﷺ؟ إن أوجه أسباب ذلك هو إرادة الله سبحانه وتعالى واختياره له أن يكون كذلك فكان صفوة أنبياء الله ولذلك السبب كان رسول الله ﷺ مميزاً عن جميع البشر وأيضاً عن جيمع الأنبياء ولذلك فقد أجرى الله سبحانه وتعالى لمصطفاه من خلقه ومن أنبيائه أول عملية جراحية في التاريخ استؤصل فيها قلبه الشريف

---

(١) مسلم ١٥/ ٩٥ .

(٢) مسلم ١٥/ ٩٦ .

(٣) مسلم ١٥/ ٣٠ .

وأجريت للقلب عملية استئصال و تنقية بواسطة الملائكة الكرام وهو ما يعرف بحادثة شق الصدر ، ولم نسمع ولم يرد أن هذه العملية أجريت لأحد من الأنبياء سوى نبينا محمد ﷺ لذلك فرسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام هو الوحيد من الأنبياء الذي أجريت لقلبه تلك العملية واستؤصل منه علقة سوداء وغسل قلبه بطست من ذهب كما ورد ذلك عنه ﷺ وجاء مبسوطاً بالسير فقد ورد في سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له يا رسول الله حدثنا عن نفسك قال : " نعم . أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخي عيسى ورأت أمي حين حملت بي انه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر فبينما وأنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى غنماً لنا إذ أتاني رجلأن عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملؤة ثلجاً ، ثم أخذاني فشقا بطني واستخرجا قلبي فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه ثم قال احدهم لصاحبه زنه بعشرة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال زنه بمائه من أمته فوزنتهم ، ثم قال زنه بألف فوزنتهم فقال : دعه فوالله لو وزنته بأمته لوزنها " . فلماذا أجريت له ﷺ تلك العملية ؟ هل لأنه الوحيد من الأنبياء الذي يوجد في قلبه تلك العلقة السوداء ؟ بالتأكيد لا فهي إذاً موجودة لدى جميع الأنبياء ولكنها لم تستأصل من احد منهم عدا نبينا محمد صلى الله وسلم فهي موجودة إذاً لدى جميع الأنبياء وبحجمها لدى كل واحد منهم عليهم الصلاة والسلام كانت لمم الأخطاء . وهنا قد يقول قائل إن العملية قد أجريت لقلبه ﷺ فما هو تأويل ذلك ؟ .

إن تأويل ذلك هو أن القرآن والعلم يخاطب العقل ومع ذلك فان الخطاب ليس فقط للعقل فلا بد للعقل من مساعد أو مسيطر يعرض عليه الأفكار وهذا المساعد أو المسيطر هو القلب لأن العقل وحده لا يستطيع إدراك بعض الأمور واضرب على ذلك مثلاً وهو قصة عصى موسى عليه السلام عندما ضرب بها البحر فانفلق كما اخبر بذلك رب العزة سبحانه وتعالى ، مثل هذه الأمور لا يستطيع العقل وحده أن يقطع بها أو يفسرها تفسيراً منطقياً ذلك

أن العقل يستطيع أن يجزم في الأمور العملية والمنطقة ألبحته فقط ومثال على ذلك أن النار تحرق هذا الأمر لو عرضناه على العقل فهو سيقره بالتأكيد لأن العقل يدرك أن للنار درجة حرارة عالية وإذا ما عرضنا لها مادة قابلة للاشتعال فان تلك المادة لن تستطيع تحمل حرارة النار إلا بقدر كثافة ومكونات جزيئاتها وبالتالي فعندما تزيد الحرارة عن احتمال جزيئات تلك المادة فسوف تشتعل فهذا أمر منطقي وبديهي أما لو قمنا بعرض قصة انفلاق البحر لموسى عليه السلام على العقل وحده فلن يستطيع تقبلها لأنها بمقياس العقل غير منطقية ولا يمكن تفسيرها علمياُ وبالتالي لا يمكن أن يتقبلها العقل لا علمياً ولا منطقياً وهنا يأتي دور القلب لأننا لو عرضنا هذا الأمر على إنسان ملحد من أهل العلم فهو لن يسلم بحدوثه لأنه علمياً لا يمكن أن يحدث وبالتالي فان عقله سوف ينفي إمكانية حدوث مثل هذا الأمر منطقياً وهنا يأتي دور القلب ، وبما أن القلب ملحد ولا مكان فيه للإيمان بالله فلن يكون عند ذلك الشخص مجال لقبول ذلك الأمر ، أما لو قمنا بعرض نفس القصة على إنسان مؤمن بالله وبقدرته سواء كان من أهل العلم أو حتى من غير أهل العلم وسألته عن قصة موسى مع فرعون عندما وصل البحر فسيقول لك أن البحر قد انشق لموسى عندما ضربه بالعصا ولو سألته كيف حدث ذلك لقال لك بقدرة الله تعالى فما هو الذي جعله يقول ذلك ؟ هل هو العقل فقط ؟ بالطبع لا فالذي جعله يجيب بهذا الجواب هو القلب المفطور على الإيمان لذلك فإننا إذا قمنا باستعراض الآيات القرآنية فسوف نلاحظ أنها لا تكتفي فقط بمخاطبة العقل وكثيراً ما نقرأ آيات قرآنية تتحدث عن القلوب .

لاحظ مثلاً عندما تحدث الله سبحانه وتعالى عن أصحاب جهنم لم يذكر العقول إنما ذكر القلوب قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ ففي التعلم والتفكر والإدراك خوطب العقل وتحدثت الآيات عن العقل أما في الإيمانيات والصلاح والفساد فسوف نلاحظ أن الآيات تتحدث عن القلب لا العقل ذلك لأن العقل للتفكير والتفسير والتدبير أما القلب فهو للإيمان والاستبصار لذلك جاء في الحديث النبوي

الشريف " ألا وان في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" فالجسد كله من ناحية الصلاح والفساد الروحي ليس مبنياً على العقل إنما هو مبني على القلب بنص الآيات القرآنية الكريمة الواردة بهذا الشأن ، وكذلك بنص الحديث الشريف المذكور أنفاً ، فأنت أيها الإنسان تفكر بعقلك تفكيراً مادياً وعلمياً وتفقه بقلبك المفطور على الفطرة التي فطر الله سبحانه وتعالى الناس عليها كل ما هو متعلق بالأمور الروحية والدينية وهذا الأمر يتعلق بالمؤمن فقط فسبحان الله العظيم وصدق رسوله الكريم ﷺ إذ يقول " عجباً لأمر المؤمن . إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر . فكان خيراً له وان أصابته ضراء صبر فكان خيراً له "[١] صدق رسول الله ﷺ .

فلماذا ذلك فقط للمؤمن يا حبيبي يا رسول الله ؟ لأن المؤمن بفقه قلبه المفطور على الإيمان والمرتبط مع الله يعلم أن السراء قد أسره فيها ربه فيشكر المنعم فينال على ذلك الشكر الأجر العظيم من الله ، ويعلم أيضاً أن الضراء والابتلاء من عند الله ولا راد لقضاء الله فيصبر على ما أصابه فينال بذلك الأجر العظيم ، أما غير المؤمن فيفرح بالسراء ويدعي حصولها لذكائه وفطنته وتدبيره بينما تراه في الضراء يسخط ويحنق ويتعلل بسوء حظه العاثر . لذلك فان القلب هو وعاء الإيمان بينما العقل هو وعاء العلم . وهنا لا بد لي من العودة إلى قصة فرعون مع موسى لتوضيح هذا الأمر ، فعندما تبع فرعون لعنه الله موسى عليه السلام إلى شاطئ البحر وانشق البحر لموسى ومن معه ، ففي مثل هذه المواقف الحاسمة يأتي دور القلب، ولنعرض الأمر اولاً على فرعون عليه لعنة الله ونحلل إبعاد ذلك الموقف من وجهة النظر الفرعونية ، فموسى عليه السلام يخوض غمار البحر المنشق مع قومه ويسيرون داخل البحر بين جدر من الماء .

---

(١) مسلم ١٨/ ٩٨ .

وعندما شاهد فرعون ذلك الموقف لا بد أنه فكر وذلك انه لا يمكن لشخص يفرض سيطرته وجبروته على مملكة كمملكة الفراعنة إلا أن يكون صاحب عقل وحنكه وقدرات ومميزات فذه ، فما الذي دفعه أن يفعل ما فعل وكيف كان تفكيره هو وجنوده والذي أدى بهم إلى تلك الكارثة وأدى بهم إلى حتفهم المحتوم ؟ رأؤو البحر وقد إنشق وأصبحت بين جدران الماء ممرات وعبر تلك الممرات بشر يسيرون إلى الجهة الأخرى . فإذا لحق بهم فرعون وجنوده فهم أيضاً سوف يسيرون عبر هذا الشق المائي ويتمكنوا من إدراك الخصم ، ثم عرض فرعون هذا الأمر او هذا التفسير العقلي على القلب هل يمكن ذلك ؟

القلب فاسد لأنه لا يوجد به أيمان بالله تعالى وبالتالي فان تلك المضغة الفاسدة لن تستشعر خطر غضب الله تعالى وبالتالي فهي سوف تنصاع لتفكير العقل المادي والذي مفاده : كما عبر موسى ومن معه سوف اعبر أنا ومن معي وهكذا كانت النهاية . وينطبق الأمر كذلك على كنعان ابن نوح عندما دعاه والده نوح عليه السلام للركوب بالسفينة للنجاة من غضب الله تعالى فكان تفكيره مادياً لأن من المعلوم أن الماء سوف يغمر المناطق المنخفضة كما هي العادة عندما يكون المطر غزيراً فإذا ما صعدت على احد الجبال العالية فلن يدركني الماء وسوف أنجو . قال تعالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٢ –٤٣] .

وعليه فان العقل والتفكير المادي المعهود لا يخدم صاحبه في كل الأحيان وذلك لأن العقل يستطيع القياس بالمقاييس المادية التي اعتاد عليها ، أما فيما يتعدى الأمور العلمية والمادية المعتادة فيتوقف دوره إلى هذا الحد وهنا يأتي دور القلب وبالإيمانيات لا بالماديات ، من هنا قلت أن العقل هو المختص بالأمور العلمية والمادية المعهودة والمتعارف عليها ، أما القلب فهو صاحب الاختصاص فيما يتعدى الماديات إلى الإيمانيات والتي من أهمها المعجزات الربانية كونها تتعدى مفهوم وإدراك العقل وذلك لأن العقل وحده لا يمكن له أن يثبت

الإيمانيات ويقتنع بها إلا إذا شارك فيها القلب ، ولكي يصل الإنسان صاحب العقل والقلب [1] إلى الإيمان واليقين لا بد أن تكون تلك المضغهة صالحة وإلا فلن يستطيع الإنسان بذلك تجاوز أو تخطي حدود العقل والمنطق وسيبقى في نفس الدائرة وهنا تحل الكارثة وهذا ما سيحدث لكل من حاول التدخل في شؤون الله تعالى والتطاول عليه كما هو الأمر بمحاولة استنساخ البشر [2] بعد هذا التوضيح سوف أعود هنا للحديث عن إبراهيم عليه السلام لأبين وأوضح المقصود بقول رسول الله ﷺ: " نحن أحق بالشك من إبراهيم " . لقد كان إبراهيم عليه السلام صاحب أسلوب رائع مقنع في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، فبعد أن أوحى له رب العزة سبحانه وتعالى ليدعوا الناس إلى الله ويخرجهم من ظلمات الجهل والوثنية إلى نور التوحيد كان له مواقف إبداعية في الدعوة . ومن صور ذلك الإبداع عندما قام عليه السلام بتكسير الأصنام التي يعبدها قومه إلا صنماً واحداً كبيراً تركه ولم يقم بتكسيره ليس احتراماً منه لذلك الصنم وتعظيماً له بل لعقل متميز صاحب تفكير فذ .

عقل يفكر ويدعوا بل ويجبر العقول أيضاً على التفكير ويحفزها عليه ، فمن المهم أن يفكر الإنسان ولكن الأهم هو أن تفكر وتحث الآخرين على التفكير وهنا يكمن الذكاء والتميز ، ومن أهم مميزات التفكير السليم أن يوصلك تفكيرك ذلك إلى الحجة والدليل الساطع الباهر الذي تستطيع بواسطته إفحام الخصم وإقناعه . فلماذا ترك إبراهيم عليه السلام ذلك الصنم الكبير وعلق الفأس التي حطم بها الأصنام في رقبته ؟ لقد فعل عليه السلام ذلك لسبب وجيه أوضحه لنا رب العزة سبحانه وتعالى في محكم التنزيل ﴿لعلهم إليه يرجعون﴾ لعل قومه يرجعون إلى ذلك الصنم ، وإذا رجعوا إليه فسوف يستخدمون عقولهم علهم يفيقون مما هم فيه ، فكأنه عليه السلام يحفزهم على التفكير وبالدليل الواضح المبهر وذلك

---

(١) سوف أقوم إن شاء الله تعالى بوضع باب في هذا الكتاب عن هذا الأمر بتفصيل أكثر وهو باب (ما بين العقل والقلب) والذي سيأتي فيها بعد .

(٢) سوف اتطرق للحديث عن موضوع الاستنساخ في باب قادم إن شاء الله تعالى .

لأن دعوته لهم لم تجدي فابتكر أسلوباً آخر أكثر تناسباً مع الوضع قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾[الأنبياء: ٥١ – ٥٣] ، فإبراهيم عليه السلام يدعوا قومه للإيمان بالله تعالى وترك الشرك وهم يصرون على العكوف على عبادة الأصنام لأنهم ورثوا تلك العبادة عن آبائهم وأجدادهم واعتادوا عليها وهنا يجيب إبراهيم عليه السلام اجابةً قوية مزلزلة ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

لقد نسف عليه السلام عقيدتهم من الأساس وسفه عقولهم وعقول آبائهم لأنها عقول ظاله بعيدة عن الحقيقة ، وبعد أن رأى إصرارهم على رأيهم في العكوف على عبادة تلك الأصنام توعدهم بالكيد لتلك الأصنام التي تصرفهم عن عبادة الله ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧] ، ثم ينفذ عليه السلام وعيده ذلك بتكسير تلك الأصنام﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ أقدم عليه السلام على تكسير جميع الأصنام إلى قطع صغيره إلا الصنم الكبير فقد تركه سالماً ولم يكسره وعلق الفأس التي كسر بها الأصنام في رقبته وخرج ، وعندما عاد قومه من إشغالهم إلى المعبد لعبادة الأصنام وجدوها على تلك الحال التي وصفها رب العزة سبحانه وتعالى ثم اخذوا يتساءلون عمن فعل ذلك بآلهتهم وكان من بينهم من سمع وعيد إبراهيم بالكيد لتلك الأصنام ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ احضروا إبراهيم عليه السلام ووجهوا له التهمه بصيغة سؤال وهنا لا بد من الإجابة وانظر إلى براعة الإجابة ودقتها وإبهارها . هل كان إبراهيم عليه السلام يخشى الاعتراف بالحقيقة أو كان يريد الكذب للتملص من فعلته تلك ؟ لا والله لم يخشى الاعتراف بالحقيقة ولا قصد الكذب بل أراد الخير لقومه ولو كانت هذه هي الصورة الوحيدة للكذب لأمرنا به ولما نهينا عنه وهنا لا بد لنا أن نؤكد ما أكده رسول الله ﷺ ونأوله إلى المعنى الذي أريد منه .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام ، قط إلا ثلاث كذبات . اثنتين في ذات الله . قوله : إني سقيم . وقوله : بل فعله كبيرهم هذا . وواحدة في شأن سارة : فانه قدم ارض جبار ومعه سارة . وكانت أحسن الناس . فقال لها : إن هذا الجبار ، إن يعلم انك امرأتي ، يغلبني عليك . فإذا سألك فاخبريه انك أختي . فإنك أختي في الإسلام . فاني لا اعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك . فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار. أتاه فقال له لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك. فأرسل إليها فأتي بها . فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة . فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها . فقبضت يده قبضة شديدة . فقال لها ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك . ففعلت . فعاد . فقبضت اشد من القبضة الأولى . فقال لها مثل ذلك . ففعلت . فعاد . فقبضت اشد من القبضتين الأوليين . فقال : ادعي الله أن يطلق يدي . فلك الله أن لا أضرك . ففعلت وأطلقت يده. ودعا الذي جاء بها فقال له : انك إنما أتيتني بشيطان . ولم تأتني بإنسان. فأخرجها من ارضي ، وأعطها هاجر " [1] .

إن إطلاق لفظ الكذب على قول إبراهيم عليه السلام من رسول الله ﷺ فيه اكبر دليل على أن الأمور تسمى بمسمياتها وتأول إلى مقصدها لذلك فان كل قول يعاكس الحقيقة يعد كذباً ، ولكن الكذب لا يحتمل جميعه وجهاً واحداً إنما هو على وجوه ، فبعضه حرام ، وبعضه جائز بل إن بعض العلماء ذهب إلى وجوبه احياناً فقد قال النووي رحمه الله في تعليقه على هذا الحديث : (اتفق الفقهاء على انه لو جاء ظالم يطلب انساناً مختفياً ليقتله أو يطلب وديعة لإنسان ليأخذها غصباً وسأل عن ذلك وجب على من علم ذلك إخفائه وإنكار العلم به وهذا الكذب جائز بل واجب لكونه في دفع الظالم) [2] .

---

(١) مسلم ١٥/ ١٠١ .

(٢) مسلم بشرح النووي ١٥/ ١٠١ .

أما ما يتردد على السنة الناس في زماننا والذين يقومون بتلوين الكذب فيجعلون منه ابيضاً واسود وما إلى ذلك فهذا الأمر لا وجود له . وإنما الصواب في ذلك هو أن الكذب له ثلاث أقسام حرام ، جائز ، وواجب ، أما الكذب الحرام فهو كل ما احل حراماً أو حرم حلالاً أو دفع حقاً أو اثبت باطلاً أو استخف بالناس أو أوهمهم . أما الكذب الجائز فهو جائز إذا دفع ضرراً ، أما إذا لم يدفع ضرراً فيكون تركه في هذه الحالة أولى ، وقد قال الإمام النووي رحمه الله ما نصه : (إن الكلام وسيلة إلى المقاصد . فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه ، وان لم يكن تحصيله إلا بالكذب ، جاز الكذب . ثم إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحاً كان الكذب مباحاً ، وان كان واجباً ، كان الكذب واجباً) .

واستدل العلماء بجواز الكذب في هذا الحال بحديث أم كلثوم رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ، فينمي خيراً أو يقول خيراً)) [1] ، فإبراهيم عليه السلام يعلم أنهم سوف يصلون للحقيقة ولكنه أجاب بذلك الجواب ليحفز الحقول على العمل لعل تلك العقول الصماء تدرك الحقيقة الساطعة الجلية فأجابهم كما اخبر رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾[الأنبياء: ٦٣] ، أراد عليه السلام بتلك الاجابه أن يوصلهم للحقيقة لعلهم يفيقون مما هم فيه ، وأرادهم أن يتأكدوا وبالدليل الدامغ أنهم على خطأ وأنهم يعبدون حجارة وليس آلهة .

تلك الحجارة صماء بكماء لا تضرهم ولا تنفعهم بل هي من العجز بحيث أنها لا تستطيع أن تنفع نفسها وتدفع عنها الأذى فكيف لها أن تنفع غيرها ، فماذا كانت النتيجة ؟

---

(١) متفق عليه رياض الصالحين ص ٤٥٩ وزاد مسلم في رواية " قالت أم كلثوم : ولم اسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث ، تعني الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته وحديث المرآة زوجها " مسلم ١٦/ ١٢٩ .

كانت النتيجة كما اخبر بها رب العزة سبحانه وتعالى وهي نفس النتيجة التي أراد إبراهيم عليه السلام أن يوصل إليها قومه . أنا لم افعل ذلك لآلهتكم وان أردتم معرفة الفاعل فعودوا لتلك الاله التي تعبدونها من دون الله فاسألوها عمن فعل فيها ذلك الفعل فان كانت آلهة تستحق العبادة كما تدعون فهي التي ستخبركم عن الفاعل .

فإلى ماذا وصل القوم في ذلك الموقف والمقام ؟ لقد وصلوا إلى الحقيقة واعترفوا بها اعترافاً صريحاً لا يقبل الشك أو التأويل، ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ طأطأوا تلك الرؤوس خجلاً من ذلك الموقف الذي أوصلهم إليه ذكاء ونبوغ إبراهيم عليه السلام وقادهم للاعتراف بالحقيقة التي كان يريد أن يوصلهم إليها بذكائه ونبوغه عليه السلام فأجابوه بقولهم: أنت تعلم أن هذه التماثيل لا تنطق لأنه ليس لها القدرة على ذلك، وهنا يستغل عليه السلام ذلك الموقف الضعيف الذي كانوا فيه ليخرجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الهداية والعلم والإيمان وبالحجة وبالدليل ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أرشدهم إلى الصواب وبين لهم الحقيقة ثم تأفف أصنامهم كرهاً لها لأنها تعبد من دون الله، أفلا تملكون عقولاً تبين لكم الحقيقة الساطعة الباهرة لتعودوا عن غيكم وعنادكم؟.

ولكن آنى لتلك العقول المتحجره وتلك القلوب المغلقه وتلك العيون المطموسه والآذان الموقوره الاعتراف بالحقيقة ! أصر القوم على رأيهم وعنادهم وغيهم وتجاهلوا كل تلك الحقائق وطالبوا بإيقاع اشد العقوبات في حق إبراهيم عليه السلام ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ نعم لقد انجلت لهم الحقيقة وعرفوها لكنهم انكروها وهذا هو دأب عقلية الكفر والفسوق والإلحاد في كل زمان ومكان ، فالحق برأيها هو ما تراه دائماً لا ما تثبته ألبينه ، فالضعيف الذي يدافع عن نفسه وأرضه وعرضه يعد ارهابياً بينما يعتبر القوي الذي يمارس الابادة والظلم والاستيلاء على حقوق الآخرين صاحب حق في الدفاع عن

نفسه ، فالصواب عند أولئك دائماً هو ما يناقض الحقيقة ولكنهم نسوا أو تناسوا أن الحقيقة لا بد لها من أن ترسخ وتثبت نفسها ولو بعد حين ، ولا بد للعاقبة من أن تكون لأهل الحق مهما طال الزمن ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩ – ٧٠] .

لقد أراد قوم إبراهيم عليه السلام الكيد به ودبروا له ومكروا ولكنهم كما قال تعالى في سورة أخرى ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[آل عمران: ٥٤]، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٣] ، فكان عاقبة كيد ومكر أولئك الظلمة الخسارة في الدنيا والآخرة وكما سيكون مكر من يمكر بالإسلام وبالمؤمنين خسارة في الدنيا والآخرة ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦ – ١٩٧] .

هذه فقط ليست سوى نبذات من سيرة إبراهيم عليه السلام تدل على سيرته الحافلة بالذكاء الشديد والاعتماد على العقل بأسلوب مميز في كل المواقف فكان عليه السلام يعتمد على العقل بشكل متميز في سلوكه وحياته وفي بحثه عن الحقيقة وفي الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، فهل توقف ذلك الذكاء ؟ والجواب أنه لم يتوقف ابداً بل إننا نلمحه جلياً واضحاً من خلال الآيات القرآنية الكريمة التي تحدثت عن سيرة إبراهيم عليه السلام في محاججته للنمرود ، وفي محاججته لأبيه ، وفي محاججته لقومه ودعوته لهم ، وفي زيارته لابنه إسماعيل عليهما السلام في مكة عندما أوصى زوجة ابنه أن تبلغ زوجها " أن غير عتبة بابك " [١] ،

(١) رواه البخاري من حديث بن عباس عن قصة أم إسماعيل عليهما السلام بعد أن اودعهما إبراهيم عليه السلام في مكة ، رياض الصالحين ص ٥٤٦ ح ١٨٦٧ .

وذلك لتذمرهـا وشكواها ، فرأى أنها لا تليق بإسماعيل النبي عليه السلام . وكذلك الأمر عندما قام بتكسير الأصنام ، وكذلك الأمر في قصة الكواكب والتي أميل إلى تسميتها بقصة البحث عن الحقيقة التي وردت في سورة الأنعام بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٧٤ – ٨٣] .

إن من يتلوا هذه الآيات الكريمة سوف يتبادر لذهنه أن هذه هي الطريقة التي اهتدى بواسطتها إبراهيم عليه السلام إلى الله، وذلك لأن نص الآيات الكريمة يدل على ذلك، ولكن ومن خلال إطلاعي على تفاسير أهل العلم من السلف الصالح رأيت شبه إجماع منهم على أن هذا الأمر كان في سياق محاججة إبراهيم عليه السلام لأهل الشام عندما قدم أليهم وكانوا يعبدون الكواكب ، فسار معهم بالأسلوب الذي يستطيع بواسطته أن يردهم عن عبادة الكواكب ليوصلهم إلى الحقيقة، فادعى عبادة الكواكب ليوصلهم بالحجة إلى بطلأن ما هم عليه، وكان ذلك من علمائنا الكرام جزاهم الله خيرا لينئوا بإبراهيم عليه السلام عن الإشراك بالله لأنه لا يليق بهذا النبي الكريم وأبو الأنبياء أن يمر خلال حياته بلحظة إشراك بالله تعالى .

ولكن هناك حقيقة يجب أن لا نغفل عنها ألا وهي أن ذلك لو حدث لما عد اشراكاً بالله وذلك لأن إبراهيم عليه السلام لم يـرث النبوة عن أبيه كما ورثها لأبناءه من بعده واقصد بذلك انه عليه السلام لم يولد في بيئة إيمان حتى يكون مشركاً بالله ، وإنما ولد في بيئة إشراك بالله ، وحتى يصل إلى الحقيقة كان لا بد له أن يبحث عنها لأنه يعيش في مجتمع بعيد كل البعد عن الحقيقة، وإبراهيم عليه السلام لم يولد نبياً كعيسى عليه السلام حتى يعد بحثه عن الحقيقة اشراكاً بالله ، وخير مثال على ذلك هو سيد الخلق محمد ﷺ والذي مر بحالة مشابهه لما مر به إبراهيم عليه السلام ، فقد كان ﷺ قبل أن يوحى إليه يذهب ليتعبد في غار حراء ، فما هي تلك العبادة التي كان يمارسها رسول الله ﷺ في الغار ؟ هل كان يصلي ، هل كان يُسّبِح ، أم ماذا كان يفعل ؟ تنقل كتب السيرة انه كان ﷺ يتعبد في الغار على ملة أبيه إبراهيم فقط ولم توضح طبيعة ذلك التعبد إلا بأمر واحد وهو انه كان ﷺ يتفكر في خلق السماوات والأرض ، وكان مقتنعاً إن قريش بعبادتها للأوثان كانت على ظلال ، من هنا نستطيع أن نقول إن رسول الله محمد ﷺ كان يذهب إلى غار حراء للبحث عن الحقيقة ، وتلك الحقيقة هي البحث عن الإله الواحد الذي كان يستحق العبادة ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لإبراهيم عليه السلام لأن وجوده في مجتمع بعيد عن الحقيقة يوجب عليه أن يبحث عنها ، لأن من يجهل الحقيقة لا بد له من أن يبحث عنها ليصل إليها . لذلك فإنني أرى أن ذلك لو كان هو الأسلوب الذي اعتمده إبراهيم عليه السلام ليصل إلى حقيقة وحدانية الله فان ذلك لا يعد اشراكاً ، وذلك لأن الإشراك هو أن تتخذ مع الله آلهة أخرى ، ولا يمكن لك أن تكون مشركاً بالله إلا عندما تصل إلى حقيقة وحدانيته سبحانه وتعالى ثم تشرك معه الاهاً آخر ، أما إن كنت أصلا لم تصل بعد إلى الحقيقة فلا يمكن أن يعد بحثك عنها اشراكاً بالله لأن الغاية من البحث هو الوصول إلى الحقيقة.

إذا عدنا إلى الآيات الكريمة من سورة الأنعام فسيتبين لنا أن المحاجة كانت من قوم إبراهيم عليه السلام بعد أن وصل إلى الحقيقة ووجه وجهه إلى الله تعالى عندها فقط

بدأت المحاججه من قومه ليثنوه ويبعدوه عن ما توصل إليه فاخذ يحاججهم بذلك . فالمحاججة ما بين إبراهيم وقومه بـدأت بعد أن وجه وجهه لله ونفى عن نفسه الإشراك به . لذلك فان بحث إبراهيم عليه السلام عن الإله الحق الذي يستحق العبادة بواسطة الانتقال من مرحلة إلى أخرى لا يمكن أن يعد اشراكاً بالله تعالى وإنما يعد بحثاً عن حقيقة لم تتضح بعد وليس عنده أساس معلوم يبني عليه .

بينما لو كان ذلك القول من إسماعيل أو إسحاق عليهما السلام لعد ذلك اشراكاً بالله لأن حقيقة وحدانية الله واضحة لهما وذلك لأنهما ورثا النبوة عن ابيهما بينما لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لإبراهيم عليه السلام لأنه اصلاً ولد في مجتمع مشرك يعتبر عبادة الأوثان هو الحقيقة وما عداه باطلاً . لذلك فان هذا الأمر يؤكد لنا أن هذا القول من إبراهيم عليه السلام كان في بداية عهده بالدعوة وقبل أن يوحى إليه من الله سبحانه وتعالى فإبراهيم عليه السلام لم يكن مقتنعاً بعبادة الأوثان وكان يرى أن أبيه وقومه على ظلال لعكوفهم على عبادة الأصنام فاخذ بالبحث عن الإله الذي يستحق العبادة متدرجاً في الأمر إلى أن وصل إلى الحقيقة الثابتة التي أهلته للرسالة . ومع هذا التوضيح إلا أنني لا اجزم أن الأمر كذلك فقد يكون كما قال بعض العلماء إن هذا الأمر كان في سياق المحاججة .

وقد قال البعض إن هذا القول كان من إبراهيم عليه السلام في طفولته عندما خرج من السرداب الذي كان مختبئاً فيه أثناء طفولته للنجاة من النمرود . وقال آخرون انه كان على سبيل المحاججة بينما يبين لنا القرآن الكريم إن ذلك الأمر كان على سبيل الحقيقة وليس إقامة الحجة لأننا لو قرأنا الآيات التي تتحدث عن إقامة الحجة لوجدناها واضحة صريحة وتدل على ذلك بوضوح كقصة تحطيم الأصنام بينما لا نجد المحاججة واضحة في الآيات الكريمة من سورة الأنعام إلا في ختام القصة ، لذلك كله كان إبراهيم عليه السلام امة لوحده ونتيجة لذكائه وعبقريته اختاره الله تعالى خليلاً فاستحق الخلة واسم الأمة لأنه استطاع الفكاك من تأثير الأب والأهل والعشيرة والعادة وانفرج عن امة كافرة وحيداً ليكون امة مؤمنه ولأنه

اصل هذه الأمة أعطاه الله تعالى لقب أمه لتميزه وتفرده عن قومه ، لذلك فان إبراهيم عليه السلام استطاع الخلاص من العادة وتأثير المجتمع بواسطة الفطرة السليمة والعقل الواعي وذلك لحديث رسول الله ﷺ ((ما من مولود إلا يولد على الفطره فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعا ؟)) ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[الروم: ٣٠] [١] ، لكن إبراهيم عليه السلام اعتمد على ألفطره بتوفيق من الله فاستطاع بواسطة الفطرة السليمة الخلاص من تأثير المجتمع الذي يعيش فيه مما أهله للوصول إلى الحقيقة والتي أهلته بدورها للرسالة .

وإذا عدنا إلى أمر تكسير الأصنام فسوف نجد أن المحاجحة في ذلك الأمر واضحة جلية وهي اسلوب اتبعه إبراهيم عليه السلام ليحاج به قومه وليثبت لهم بالدليل القاطع بأنهم يعبدون حجارة وليس آلهة ، تلك الحجارة صماء بكماء لا تضرهم ولا تنفعهم وهي من العجز بحيث أنها لا تستطيع أن تنفع نفسها وتدفع عنها وتحميها ، بينما لا نلاحظ تلك المحاجحة واضحة بهذا الشكل في أمر عبادة الكواكب ، فكما أنها تحتمل المحاجحة فهي تحتمل أيضاً البحث عن الحقيقة .

من هنا نستطيع القول أن إبراهيم عليه السلام عندما طلب رؤية كيفية الإحياء كان شاكاً ولكن شكه كان في الاتجاه الأخر وهو انه شك بقدرته هو على استيعاب الفكره ولم يشك بقدرة الله تعالى على الإحياء . وعليه فان رسول الله محمد ﷺ عندما قال في الحديث الشريف : ((نحن أحق بالشك من إبراهيم)) قصد ﷺ إثبات الشك بحق إبراهيم عليه السلام لا نفيه ، ولكن ذلك الشك لم يكن شكاً كما قد يفهم منه على انه شك بقدرة الله تعالى على الإحياء وإنما هو شك بقدرة العقل على استيعاب وقبول كل الأمور على عواهنها ، فان أنا شككت في أمر من الأمور فلا بأس أن ابحث فيه واستقصي وأحاول إيجاد الدليل لأصل

---

(١) مسلم ١٦/ ١٩٦ .

إلى الحقيقة وقد كانت تمر بي حالة من الشك في كل مره كنت اقرأ فيها آية من القرآن الكريم في سورة البقرة ألا وهي قوله تعالى : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ ﴾[البقرة: ٢٨٤] ، فقد كانت تنتابني حالة من الشك في كل مرة اقرأ فيها هذه الآية الكريمة ، ليس شكاً في نص الآية حاشا الله وتنـزه سبحانـه وتعالى عن أن أشك في حرف من كتابه الكريم الذي تعهد سبحانه وتعالى بحفظه ولكن شكي كان في اتجاه آخر ألا وهو : هل قصدت الآية الكريمة ما فهمته منها أو ما يفهم منها ؟ أي أن شكي كان في تفسير الآية التلقائي وهو ما تفهمه بمجرد تلاوة الآية الكريمة ، ولم استطع أن أتقبل ما تبادر لذهني من معناً أو تفسير للآية الكريمة لأن هناك ما ينافيه ، وعندما رجعت إلى التفسير وجدته مقارباً لما فهمت فزادني ذلك شكاً فوق شكي ، فما هو التفسير الذي يتبادر للذهن عند تلاوة الآية الكريمة (انك بمجرد أن تفكر بارتكاب أي من المحذورات سوف يحاسبك الله سبحانه وتعالى عليه سواء فعلته أو لم تفعله)

وهذا يتنافى مع عدل الله سبحانه وتعالى ورحمته وذلك لأن من أسماء الله تعالى (العادل) . الله سبحانه وتعالى اتصف بالعدل في الحقوق بين الناس لكنه سبحانه وتعالى في الحقوق بينه وبين العباد ليس عادلاً وحسب بل انه سبحانه وتعالى تجاوز العدل إلى الكرم ، فمثلاً من مظاهر العدل فيما بين الناس قوله تعالى ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ ﴾ [المائدة: ٤٥] ، هذا هو مطلق العدل ، فقد ساوى سبحانه وتعالى في حكمه بين البشر بالعدل ولم يكرم بالحقوق فيما بينهم لطرف على حساب الطرف الآخر ، أما في حكمه سبحانه وتعالى بينه وبين عباده ، أي في حقوقه سبحانه وتعالى فقد تجاوز العدل إلى الكرم إلى الإحسان ، ومن تلك المظاهر أن السيئة بسيئة والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٦١] ، ولم يكرم سبحانه وتعالى في حقوق العباد بعضهم على بعض ، أي انه لم يجعل مثلاً حد القتل يطبق على القاتل بعد أن يقتل عشرة

أنفس ليقام عليه الحد بل جعله حكماً عادلاً نفس بنفس . لذا فان الله سبحانه وتعالى عادلٌ في حكمه بين عباده بالحقوق ولكنه سبحانه وتعالى كريم ومحسن فيما بينه وبين عباده ، ولم يكن سبحانه وتعالى كريم فيما بين عباده في حقوق بعضهم على بعض

لأن الكرم في هذه الحالة يصبح ظلماً وحاشا لله المنتزه عن النقائص أن يظلم أحدا من العباد . وذلك لأن الكرم في غير موضعه ظلم أحياناً ، وكيف يصبح الكرم ظلماً ؟ لكي أوضح ذلك فلنفترض جدلاً وهو افتراض خال من الصحة ولكنني أتيت به على سبيل المثال والتوضيح . فلو أن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبة القتل أو عقوبة أي حد من الحدود الواحدة بعشر أمثالها كما جعل ذلك في الحسنات أليس ذلك كرم على القاتل ؟ اجل انه كرم على القاتل ولكنه في الوقت نفسه ظلم على المقتولين لأن إزهاق روح القاتل في تلك الحالة يقابلها إزهاق روح واحد من العشرة ، إذاً فقد وقع الظلم على التسعة الآخرين . لذلك فان الله سبحانه وتعالى عادل فيما بين عباده بإساءة بعضهم لبعض وكريم عليهم في إحسان بعضهم لبعض .

فإساءتك أيها الإنسان لأخيك هو أن يقع عليك ما أوقعته عليه وهذا عدل مطلق أما كرمك وإحسانك إلى أخيك فليكرم عليك أخاك بما شاء ولكن الله سبحانه وتعالى عليك أكرم ولك أجرك العظيم عنده سبحانه وتعالى على إحسانك فما أعدلك وما أكرمك يا أكرم الاكرمين .

أما الإساءة إذا وقعت منك تجاه الله سبحانه وتعالى فهو سبحانه وتعالى صاحب القرار والرأي . فإما أن يكون عادلاً معك ويجزيك على إساءتك بمثلها وهو قليل ومن الأمثلة على ذلك أن يتطاول إنسان والعياذ بالله من الشيطان الرجيم بشتم ألذات الإلهية فيجزيه على ذلك بان يشل لسانه وهذا ليس فقط عدل مطلق بل هو إحسانٌ مطلق لأن هذه النعمة وهي نعمة الكلام قد أحسن الله سبحانه وتعالى عليك بها أصلاً فهو سبحانه إن أخذها

منك جزاء عدم صيانتك لها وافترائك بها عليه يبقى أيضاً محسناً إليك بأن أبقى لك غيرها الكثير من النعم التي لا تعد ولا تحصى مصداقاً لقوله تعالى ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[إبراهيم: ١٣٤] .

أما الحالة الثاني فهي إحسان على إحسان وهو الكرم المطلق وهو أن يتجاوز الله سبحانه وتعالى لك عن ذنب ارتكبته بحقه في الدنيا ويؤخر لك العقوبة في الآخرة وهذا كثير ودليله قوله تعالى ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [النحل: ٦١].

وهذا ما نسميه بعرفنا الكرم المطلق. فترى الإنسان يظلم نفسه ويرتكب الذنوب والمعاصي فلا يعاقبه الله سبحانه وتعالى عليها في الدنيا بل يكرم عليه ويحسن إليه بان يؤجل له العقوبة ولو عجلها لكان ذلك عدل مطلق كما ذكرت . أما الحالة الثالثة فهي الإحسان من الله سبحانه وتعالى أكرم الاكرمين وأحسن المحسنين وهو ضننا به سبحانه وتعالى ، ومنها أن ترتكب الذنب فيحسن سبحانه وتعالى إليك في الدنيا إحسان على إحسان فستره عليك ولم يعاقبك عليه ثم إذا جاء وقت الحساب يوم القيامة منّ عليك سبحانه وتعالى بكرمه وإحسانه وتجاوز لك عن ذنبك وظلمك لنفسك ، وبعد أن ستره عليك في الدنيا ولم يحاسبك عليه غفره لك وكأنه لم يكن وهذا هو أملنا بالله سبحانه وتعالى وحسن الضن الذي امرنا به رسول الله ﷺ عندما قال : "لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الضن بالله عز وجل" [1] .

وقد ورد عن رسول الله ﷺ انه قال : ((يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقرره بذنوبه فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : ربِّ اعرف ، قال : أما إني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا اغفرها لك اليوم فيعطى صحيفة

---

(١) رواه مسلم ١٧/ ١٧٢ .

حسناته)) [1] اللهم اجعلنا ممن يحسنون الضن بك في الحياة وعند الموت واسترنا في الدنيا والآخرة يا ارحم الراحمين .

الله سبحانه وتعالى محسن لنا حتى عند الابتلاء وعند الفقر وعند المصيبة لأنك لو قارنت بين ما بك من ابتلاء وبين ما أغدق الله سبحانه وتعالى عليك من نعم لا تعد ولا تحصى لوجدت أن النعم أضعاف أضعاف الابتلاء، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يحاسبنا على أمر بمجرد أن يخطر في أذهاننا أو نفكر فيه بل إن من كرمه وإحسانه سبحانه وتعالى انه تجاوز لنا عن أشياء نرتكبها دون قصد كما قال تعالى: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾[البقرة: ٢٢٥] ، وحديث رسول الله صلى الله عليه سلم " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " فلو قمنا باستعراض القرآن الكريم والأحاديث النبوية المطهرة لاكتشفنا من خلالها أن الله سبحانه وتعالى خلقنا واستخلفنا على الأرض وفتح لنا جميع السبل والأبواب لندخل الجنة وجعل أبواب الجنة مشرعةً لمن يريد أن يدخلها ، بينما ضيق علينا الطريق إلى جهنم أعاذنا الله منها .

ومن الأمثلة على ذلك أن الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل ولو أرادنا للنار لما أمهل ، ومنها أيضاً أن رحمته سبحانه وتعالى سبقت غضبه ولو أرادنا للنار لسبق غضبه رحمته، ومنها انه سبحانه وتعالى انزل على الأرض رحمه واحدة وأبقى عنده تسعاً وتسعون رحمه أخرها ليوم الحساب كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ ((إن لله تعالى مائة رحمه انزل منها رحمة واحده بين الجن والأنس والبهائم والهوام ، فيها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش على ولدها ، وأخر الله تعالى تسعاً وتسعين رحمه يرحم بها عباده يوم القيامة)) [2] .

---

(١) متفق عليه ، رياض الصالحين ص ١٧٤ ح ٤٣٣ ولمسلم ١٧/ ٧٢ .

(٢) متفق عليه ، رياض الصالحين ص ١٧٠ ح ٤٢٠ ولمسلم ١٧/ ٥٧ .

ومن اكبر الأدلة والبراهين على ذلك انه جعل جزاء السيئة سيئة واحده وجزاء الحسنة بعشر أمثالها على اقل تقدير . ترى بعد هذه الفرص الكبيرة العظيمة وغيرها الكثير هل يبقى لدينا شك أن الله سبحانه وتعالى عندما خلقنا أراد بنا الخير وأرادنا أن نكون من أهل الجنة وبعث لنا الرسل وانزل علينا الكتب ، ومنحنا جميع الفرص لدخول الجنة ، وجعلنا لنا في اصغر الأعمال صدقة والصدقة بعشر أمثالها ، فتبسمك في وجه أخيك صدقه ، إماطة الأذى عن الطريق صدقة ، تلاوتك للقرآن الكريم في كل حرف صدقة أو حسنة وكل حسنة بعشر أمثالها ، وفي كل الأحوال تجد أن رب العزة سبحانه وتعالى يريد بنا الخير ويريد لنا دخول الجنة وأعطانا الحوافز التي تساعدنا على ذلك . فأبواب الجنة مشرعة لمن أراد دخولها وغير ممنوعة إلا على من أبى أن يدخلها والدليل على ذلك حديث رسول الله ﷺ ((كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى قالوا ومن يأبى يا رسول الله قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)).

إن ما يتبادر للذهن مباشره من خلال نص الآية الكريمة مدار البحث من سورة البقرة أن الله سبحانه وتعالى سوف يحاسب البشر على ما يجول في خواطرهم سواءً فعلوه أو لم يفعلوه . ترى هل هذا التفسير هو تفسير صائب ؟ الحقيقة أن هذا التفسير هو تفسير خاطئ لأنه يعتمد على الفهم السريع المتبادر للذهن ، وهنا يأتي تفسير قول رسول الله ﷺ : " نحن أحق بالشك من إبراهيم " فانا هنا لا اشك ابداً في مصداقية الآية الكريمة وما فيها ولكنني اشك في تفكيري وقدرتي على التفسير هل أنا مصيب أم مخطئ ؟ وما هو السبب الذي دعاني للشك في قدرتي على استيعاب تفسير الآية الكريمة ؟ السبب في ذلك هو انه لو كان الأمر كذلك بان نحاسب على ما في أنفسنا من حديث وما يطرأ لعقولنا من أفكار فقد هلكنا وشدد علينا تشديداً لا يمكن معه النجاة ، وهو أيضاً يتنافى مع ما جاء في الكتاب والسنة من حقائق

مؤكده لا خلاف فيها كرحمة الله تعالى وعفوه وعدله ، والأمر الثاني هو حديث رسول الله ﷺ : ((إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به))[1] .

أما الحقيقة الثالثة والمهمة والتي يجب التركيز عليها هي أن الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض أو السماء أو النفس أو العقل ولا يخفى عليه شيء في البر ولا في البحر مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[آل عمران: ٥] ثم فزع علمائنا الكرام زادهم الله رحمة على رحمة ونور على نور ، فزعوا من هذا المفهوم الظاهر للآية الكريمة لأنه لو كان معناها كما يتبادر للذهن فهو الهلاك لهذه الأمة فقالوا : نسخت الآية الكريمة .

وتالياً ما نقله القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن[2] ، للآية الكريمة قال : (فيه مسألتان الأولى اختلف الناس في معناها على أقوال خمسة الأول أنها منسوخة قاله ابن عباس وابن مسعود وعائشة وأبو هريرة والشعبي وجماعة من الصحابة والتابعين وانه بقي هذا التكليف حولاً حتى انزل الله الفرج بقوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ قال : دخل في قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء ، فقال النبي ﷺ: قولوا سمعنا واطعنا وسلمنا قال : فألقى الله الإيمان في قلوبهم فانزل الله تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ ، الثاني : قال ابن عباس وعكرمه والشعبي ومجاهد : أنها محكمة مخصوصة ، وهي في معنى الشهادة التي نهي عن كتمها ، ثم اعلم في هذه الآية أن الكاتم لها المخفي ما في نفسه محاسب ، الثالث : إن الآية في ما يطرأ على النفوس من الشك واليقين ، وقاله مجاهد أيضاً ، الرابع : أنها محكمة عامه غير منسوخة ، والله محاسب

---

(١) مسلم ٢/ ١٢٨ .

(٢) الجامع لاحكام القرآن ٣/ ٤٢١ .

خلقه على ما عملوا من عمل وعلى ما لم يعملوه مما ثبت في نفوسهم وأضمروه ونووه وأرادوه ، فيغفر للمؤمنين ويأخذ به أهل الكفر والنفاق ، ذكره الطبري عن قوم ، وادخل عن ابن عباس ما يشبه هذا . روي عن علي ابن أبي طلحه عن ابن عباس انه قال : لم تنسخ ، ولكن إذا جمع الله الخلائق يقول : إني أخبركم بما أكننتم في أنفسكم فأما المؤمنون فيخبرهم ثم يغفر لهم ، وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوه من التكذيب ، فذلك قوله ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ ﴾ وهو قوله عز وجل ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبتم﴾ من الشك والنفاق .

وقال الضحاك : يعلمه الله يوم القيامة بما كان يسره ليعلم انه لم يخفى عليه ، فيغفر للمؤمنين ويعذب الكافرين ، وهذا اصح ما في الباب ، يدل عليه حديث النجوى . فقد ثبت عن النبي ﷺ ((إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به)) ، الخامس : رجح الطبري إن الآية محكمه غير منسوخة : قال ابن عطية : وهذا هو الصواب ، وذلك إن قوله تعالى ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ معناه مما هو في وسعكم وتحت كسبكم ، وذلك استصحاب المعتقد والفكر ، فلما كان اللفظ مما يمكن أن تدخل فيه الخواطر أشفق الصحابة والنبي ﷺ ، فبين الله لهم ما أراد بالآية الأخرى ، وخصصها ونص على حكمه انه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، والخواطر ليست هي ولا دفعها في الوسع ، بل هي أمر غالب وليست مما يكتسب ، فكان في هذا البيان فرجهم وكشف كربهم ، وباقي الآية محكمة لا نسخ فيها . ومما يدفع أمر النسخ أن الآية خبر والأخبار لا يدخلها النسخ) أ هـ .

هذا بعض ما أورده القرطبي في تفسير الآية الكريمة ، وهذا يؤكد أن ما يفهم من الآية الكريمة يدخل في القلب منه شيء لأنه يتنافى مع حديث رسول الله ﷺ بتجاوز رب العزة سبحانه وتعالى لهذه الأمة عن حديث النفس ، ويتنافى أيضاً مع حديث رسول الله ﷺ عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ ، فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى ، قال : ((إن الله كتب الحسنات والسيئات)) ثم بين ذلك ، ((فمن هم بحسنه فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة

كاملة وان هم بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى إضعاف كثيرة . وان هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة . وان هم بها فعملها ، كتبها الله سيئة واحدة)) (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ ، قال : ((قال الله عز وجل : إذا تحدث عبدي بان يعمل حسنه فانا اكتبها له حسنه ما لم يعمل . فإذا عملها فانا اكتبها بعشر أمثالها . وإذا تحدث بان يعمل سيئة فانا اغفرها له ما لم يعملها . فإذا عملها فانا اكتبها له بمثلها)) (٢) ، إن ما قد يفهم من الآية الكريمة من سورة البقرة يتنافى مع عدل المولى سبحانه وتعالى وسعة رحمته ، وفي هذا المقام ومثله يأتي تفسير حديث رسول الله ﷺ ((نحن أحق بالشك من إبراهيم)) لأن إبراهيم عليه السلام عندما شك في قدرته على استيعاب كيفية من كيفيات الإحياء طلب عليها الدليل الذي ينقله من علم اليقين إلى عين اليقين ، ومن علم الإيمان إلى علم المشاهدة الذي يثبت علم الإيمان .

ونحن أيضاً في هذا المقام ومثله أحق بالشك من إبراهيم عليه السلام . ليس الشك بكلام الله تعالى بل هو الشك في قدرتنا على استيعاب ما أراده الله تعالى بالآية الكريمة وهو التفسير الدقيق للآية الكريمة والذي بواسطته نستطيع الاقتناع اولاً بصواب التفسير وثانياً للخروج من الهواجس التي تتملكنا بمجرد تلاوة الآية الكريمة وذلك للخروج مما يقع في القلب نتيجة التفسير التلقائي الظاهر والمتبادر للذهن بمجرد تلاوة الآية الكريمة .

إن الاختلاف في تفسير الآية الكريمة كان موجوداً وما زال كذلك ، وهذا بحد ذاته دليل على أن المراد بالآية الكريمة قد يكون غير ما يفهم منها وذلك لأن القرآن الكريم هو كتاب الله تعالى ودستور الأمة من لدن محمد ﷺ والى قيام الساعة ، وعليه فيحق لنا نحن أهل

---

(١) متفق عليه ، رياض الصالحين ص٢٣ ح١١ وفي مسلم ٢/ ١٣٠ .

(٢) مسلم ٢/ ١٢٩ .

هذا الزمان أن نبحث ونحلل ونفسر شريطة أن يكون تحليلنا وتفسيرنا ضمن إطار العقل وفطرة القلب وضمن فطرة الدين الحنيف الذي فطرنا عليه رب العزة سبحانه وتعالى . ولأن القرآن الكريم يصلح لكل زمان ومكان فهذا وحده دليل على وجوب تجديد التفسير لأن ما لم يكن يصلح لأهل القرون الماضية وكان مجهولاً بالنسبة لهم أصبح معلوماً بالنسبة لنا ، كعلم الهندسية الوراثية ، والعلوم التكنولوجية والجيولوجية وغيرها والتي وصلت إلى حدود لم يكن عند أهل القرون الماضية إمكانية تصورها عدا عن تصديقها ، فإذا أبقينا التفسير ثابتاً على ما كان عليه فنحن بذلك نجمد القرآن الكريم فلا يعود صالحاً لهذا الزمن وذلك لأن العلم تقدم كثيراً في هذا الزمان لذلك فإننا نشاهد ما يسمى بالإعجاز العلمي في القرآن الذي أصبح متاحاً لنا بشكل اكبر وأوسع لتطور العلوم في هذا الزمان بينما لم يكن كذلك في الماضي.

ولا بد هنا بعد هذا التوضيح أن أعود للآية الكريمة من سورة البقرة لأفسرها التفسير الدقيق الذي أراده رب العزة سبحانه وتعالى والذي يتفق مع القرآن ويتفق أيضاً مع الأحاديث النبوية الشريفة لأننا لو حاولنا جاهدين أن نجد تعارضاً ما بين آيات القرآن الكريم مع بعضها أو تعارضاً ما بين القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة فلن نستطيع إلى ذلك سبيلا وذلك لأنه اصلاً مستحيل وذلك أن تشريع القرآن وكلامه وتشريع الحديث أيضاً صادر من مصدر واحد وهو ألعلي العظيم سبحانه وتعالى لذلك لا يمكن أن تجد فيه تعارضاً ابداً ، وان شعر الإنسان انه يجد تعارضاً في ما ذكرت فهذا التعارض إنما هو صادر من فهم الإنسان نفسه لا من مصداقية القرآن الكريم أو الحديث الشريف .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء: ٨٢] ، وهذا ينطبق على القرآن الكريم وعلى الحديث الشريف الصحيح وذلك إن القرآن هو كلام الله ، والحديث كلام النبي ﷺ ولكنه بتشريع الله وبعلم أتاه الله لرسوله الكريم ﷺ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣ – ٤] ، وإذا عدنا للآية الكريمة من سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ

﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] وحاولنا أن نحلل مدلولات الآية الكريمة فسوف نلاحظ ما يلي :

اولاً : في الآية الكريمة إبداء وإخفاء .

ثانياً : الإبداء والإخفاء لما في النفس ، وورود كلمة النفس في الآية الكريمة له مغزى كبير.

ثالثاً : يحاسبكم ، ويغفر ، ويعذب . والحساب مع انه قد يطلق على العقاب والثواب إلا انه غالباً يكون على العقاب أي على الذنوب والسيئات وليس على الحسنات ، ودليل ذلك ورود كلمتي يغفر ويعذب في الآية الكريمة ، فالعذاب لا يكون إلا على ذنب أو خطأ ، والمغفرة أيضاً لا تكون إلا على ذنب أو خطأ لأن المغفرة تكون على السيئات لا على الحسنات مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [النساء: ٤٨] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] .

ولنعود هنا إلى الأمر الأول وهو الإبداء والإخفاء . والإبداء والإخفاء يحتمل اموراً منها : أن يكون الإبداء والإخفاء على الله سبحانه وتعالى وهذا مردود قطعاً لأن الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولأنه سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وهذه حقيقة ثابتة لا مجال لإنكارها وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تؤكد هذه الحقيقة ، وهنا قد يستغرب الأخ القارئ إيرادي لهذا الاحتمال مع انه ثابت لا خلاف فيه ولكنني أقول إنني أوردت هذا الأمر لأن هناك من البشر من قد يتبادر إلى ذهنه هذا المعنى عند تلاوة الآية الكريمة .

وبما أن الإبداء والإخفاء لا يكونان على الله سبحانه وتعالى لأن الأمران بالنسبة له سواء ولا يخفى عليه سبحانه وتعالى شيء . أيضاً لا يمكن أن يكون الإبداء والإخفاء على الشخص نفسه لأنه أيضاً يعلم ما أبدى وما أخفى وبذلك لا يتبقى إلا الأمر الثالث وهو الإبداء والإخفاء للناس أو عن الناس وبذلك يصبح معنى الآية الكريمة كما يلي : (إن تبدوا ما في أنفسكم [1] للناس أو تخفوه عن الناس يحاسبكم به الله) ثم انتقل بعد ذلك إلى الأمر الثاني ألا وهو النفس ، وكما ذكرت إن لورود هذه الكلمة وهي (أنفسكم) في الآية الكريمة مغزى كبير وعظيم وهو الذي تسبب في الفهم الخاطئ لتفسير الآية الكريمة وذلك لعدم الإدراك الحقيقي لمعنى هذه الكلمة .

وكما سبق وذكرت في أبواب هذا الكتاب أن النفس تحتمل أمران وهما: إما الإنسان بعناصره الثلاث الروح والنفس والجسد وهذا هو الغالب في معنى هذه الكلمة عند ورودها في القرآن الكريم . والأمر الثاني : هو ناتج سريان الروح في الجسد والذي يشكل النفس بمعناها الخاص منفردة عما سواها ففهمت كلمة النفس هنا على أنها شيء داخل الإنسان أي أنها فهمت بمفهومها الخاص . والصواب أن المقصود منها هو المفهوم العام أي أن النفس هنا يراد بها الإنسان بمكوناته الثلاث وبجميع جوارحه ، أي الإنسان بكامل كيانه .

وبالتالي أصبح مفهوم أنفسكم في الآية الكريمة لدى المفسرين بمفهوم صدوركم في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٩] ، وهنا يكمن الخطأ الفادح بحيث فهمت النفس على أنها شيء داخل الإنسان أو جزء معين منه كما هو الصدر ، ففهم من الآية الكريمة أنها تقصد النية لا العمل بينما الحقيقة أن الآية الكريمة من سورة البقرة تقصد العمل ، والآية ٢٩ من سورة آل عمران تقصد النية .

---

(١) أرى أن المراد بها (ما فعلته أنفسكم) .

أما بالنسبة للآيات التي تقصد النية فهي كثيرة سأذكر بعضاً منها. قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [لقمان: ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الزمر: ٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [التغابن: ٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الملك: ١٣] ، والآية قوله تعالى من سورة آل عمران ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، هذه الآيات الكريمة جاءت للتحدث عن النية الداخلية أو ما يضمره الإنسان بداخله . وإذا استعرضناها فسوف نجد انه لا توجد آية منها تتحدث عن حساب على ما في داخل الإنسان وكلها تحدثت عن علم رب العزة سبحانه وتعالى لما في الصدور وهي الأفكار التي تدور في رؤوس الناس ، والنيات التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى وهذه لا يحاسب عليها رب العزة سبحانه وتعالى إلا إذا تحولت من نية يخفيها الصدر إلى قول أو عمل.

لذلك فان الآيات التي جاءت للتحدث عن النيات أو عن حديث النفس ، والذي اقصده بالنفس هنا هو معناها الخاص لا العام والذي هو نفسه الذي ورد في الحديث الشريف ((إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسهم ما لم يقولوا أو يعملوا به)) لذلك نلاحظ إن الآيات التي جاءت تتحدث عن النية أو ما يدور في خلد الإنسان من أفكار لم يذكر معها الحساب وإنما ذكر معها سعة علم الله سبحانه وتعالى وإطلاعه على الظواهر والخوافي . أما في الآية الكريمة من سورة البقرة فقد ذكر معها الحساب وذلك لأنها لم تقصد النية منفردة إنما المقصود فيها هو العمل والنية معاً لأن النفس كما ذكرت في أبواب هذا الكتاب هي المنطلق لارتكاب المعاصي والآثام لأنها شهواتها ورغباتها.

لذلك فان ما يتعلق بالنفس غالباً هو أفعال وليس نيات ، وكل ما وقع من الإنسان من عمل سيحاسب عليه لأنه ترجمه من مجرد نية إلى عمل واقع لذلك ذكر الحساب في الآية

الكريمة الدالة على ما في النفس والتي قصد بها النفس في المفهوم العام لأنه عمل بينما لم يذكر في الآيات التي ورد فيها ذكر الصدور لأن ما في الصدر نية فقط لم تترجم إلى عمل . والدليل على ما أقول إننا لو إستعرضنا الآيات الكريمة الدالة على النفس فسوف نجد أن اغلبها يتحدث عن الأعمال وليس عن النيات ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦١] ، وقال تعالى : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الزمر: ٧٠] ، وقال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ [غافر: ١٧] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر: ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ [يونس: ٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [إبراهيم: ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير: ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار: ٥] ،وقال تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٣٠] .

من خلال هذه الآية الكريمة من سورة المائدة نستطيع القول إن النية أول ما تكون فكره في العقل وتسمى فكره ثم تقع تلك الفكرة في القلب فتصبح هماً ثم تطوع لها النفس فتصبح عزماً ، لذلك فان الفكرة والهم والعزم هي من مميزات النفس بمفهومها الخاص ثم يأتي بعد ذلك دور النفس بمفهومها العام ثم تترجمها الجوارح إلى عمل فتصبح واقعاً ، فإذا ما انتقلت النية من القلب ووقعت في النفس أصبحت جاهزة لأن تترجم إلى عمل ، فإذا ما

فعلتها الجوارح [١] ، فقد ترجمتها إلى عمل ، أما إن لم تترجمها الجوارح إلى عمل فتبقى مجرد نية لا حساب عليها . نلاحظ من خلال الآيات الكريمة التي تحدثت عن النفس بمفهومها العام أنها تربط النفس بالعمل لا بالنية وهنا قد يحتج البعض بحديث رسول الله ﷺ ((إنما الأعمال بالنيات)) [٢] ، لنفي ما أردت إثباته ولكنني أقول إن هذا الحديث لا يمكن أن يستشهد به لإثبات المحاسبة على النية ظهرت أم خفيت لأن الحديث واضح وضوحاً ينتفي معه أن يكون المقصود من أن الله تعالى يحاسب الإنسان على نيته فقط ، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى لا يحاسب على النية إلا إذا ترجمت إلى عمل ، وبالذات من ناحية المعصية ، لأن الحساب كما ذكرت سابقاً لفظ يطلق غالباً على ما يكون على الإنسان وليس له ، فقد يثيب الله سبحانه وتعالى الإنسان على نيته فعل الخير دون أن يفعله ولكنه تعالى لا يمكن أن يحاسب الإنسان على نية فعل الشر إلا إذا ارتبطت بالعمل ودليل ذلك هو حديث رسول الله ﷺ ((إن الله كتب الحسنات والسيئات)).

هذا الحديث الشريف يبين ويؤكد لنا أن الله سبحانه وتعالى لا يحاسبك على نية المعصية بل يثيبك عليها بحسنه إذا لم تترجم تلك النية إلى عمل وهذا من سعة رحمة الله سبحانه وتعالى وهو بحد ذاته دليل على أن الله سبحانه وتعالى عندما خلق البشر خلقهم

---

(١) الجوارح هي : النفس بمفهومها العام أي الإنسان بجميع كيانه ، أما كلمة النفس الواردة في الآية الكريمة من سورة المائدة وهي قوله تعالى﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله﴾ فكلمة النفس هنا يراد بها= = النفس بمفهومها الخاص وهي تلك النفس التي تأمر الإنسان بارتكاب ما نهى عنه الله سبحانه وتعالى . فلو أن (قابيل) اكتفى بما طوعت له نفسه بمفهومها الخاص ولم تترجه نفسه بمفهومها العام إلى عمل لما أقدم على قتل أخيه ولما حوسب على ما طوعت له نفسه ، أي إن الآية الكريمة ورد فيها ذكر النفس بمفهومها الخاص اولاً وهي قوله تعالى ﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه﴾ وورد فيها ما يدل على النفس بمفهومها العام بقوله تعالى ﴿ فقتله﴾ فعملية القتل التي قام بها (قابيل) بنفسه في مفهومها العام أي بجميع جوارحه وكيانه .

(٢) متفق عليه رياض الصالحين ص ٢٠ ح ١ ولمسلم ١٣/ ٤٦ .

للجنة وليس للنار بدليل انه جعل الفرصة لدخول الجنة أوسع منها لدخول النار وعليه لا يمكن أن يحاسبنا الله سبحانه وتعالى على نية المعصية إذا خطرت لنا أو إذا حدثتنا بها أنفسنا فقط .

ثم علينا أن لا ننسى أيضاً أن النية مقرها القلب وليس النفس لذلك فإنني أريد أن استشهد هنا بحديث رسول الله ﷺ ((إنما الأعمال بالنيات)) وذلك أن مدلول الحديث الشريف واضح جلي ، فلم يقل ﷺ (إنما الحساب على النيات دون الأعمال) ، إنما جعل الحساب على النيات مقترنة بالإعمال ولم يجعل الحساب على النية وحدها فقط إلا إذا ارتبطت بالعمل . فإذا ما أقدم الإنسان على العمل حوسب عليه بحسب النية التي كان يريدها من ذلك العمل واكبر دليل على ذلك مثلاً هو مسجد الضرار الذي بناه المنافقون في المدينة وكانت نية بنائيه هو الإرصاد للمسلمين وتفريق صفهم ومحاربة الله ورسوله .

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٧ – ١٠٩] ، هذا اكبر دليل على أن الأعمال تحسب بالنية ولكن لا بد من ارتباط النية بالعمل أي أن المهم في العمل هو النية شريطة وجود العمل . وبالرغم من أن بناء المساجد هو من اكبر القربـات إلى الله تعالى إلا أن بناء ذلك المسجد ، اقصد مسجد الضرار كان وبالاً على من بنوه في الدنيا والآخرة لأن النية من بنائه خالفت العمل فكان العمل صالحاً والنية خبيثة فكان الجزاء من جنس النية لا من جنس العمل ، وعليه فلا بد للنية من عمل ، فإذا ما وجد العمل حوسب الإنسان على نيته التي قصدها من عمله ذلك .

لذلك فإنني أقول بعد أن أفوض العلم إلى الله تعالى أن المقصود في الآية الكريمة من سورة البقرة ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ يقصد فيها العمل لا ما يجول في الخواطر أو في الصدور ، ولكي أقوم بتوضيح المقصود بشكل أوضح لا بد أن اضرب عليه مثلاً ولله المثل الأعلى . رجل مسلم بالغ عاقل راشد ومعافى قام بانتهاك حرمة شهر رمضان الفضيل متعمداً دون عذر ، ولم يكتفي بذلك بل جاهر بمعصيته تلك أمام الناس ، أي أبداها لهم وذلك الشخص ينطبق عليه الجزء الأول من الآية الكريمة ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ ورجل آخر بنفس الصفات قام بنفس الفعل ولكنه خجل أو خاف أن يطلع عليه الناس ففعلها ما بينه وبين نفسه ولم يبدها للناس ولم يعلم به احد إلا الله ، وذلك الشخص ينطبق عليه الجزء الثاني من الآية قوله تعالى﴿ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ . فالشخص الأول فعل وأبدى ما فعلته نفسه للناس ، والثاني فعل أيضاً ولكنه أخفى ما قامت أو ما قام به بنفسه عن الناس فالاثنان قاما بنفس المعصية ، وكلاهما سوف يحاسبه الله تعالى وقد يغفر لأحدهما ويعذب الآخر وقد يغفر لهما معاً وقد يعذبهما معاً . هذا هو التفسير الدقيق للآية الكريمة برأيي والله تعالى ولي التوفيق وهو تعالى اعلم.

باب في الاستنساخ التام

ما هو مفهوم الاستنساخ التام ؟

الاستنساخ التام هو ايجاد مخلوق جديد بواسطة أخذ خلية أو **DNA** من شخص معين وإنتاج او إيجاد شخص جديد آخر مطابق لمن أخذت منه تلك العينة .

وبالرغم من ان موضوع الاستنساخ بشكل عام هو موضوع شائك ومعقد ومنه ما يتعلق بأمور طبية لاستنساخ الأعضاء البشرية والخلايا الجذعية وهو ما قد يقدم حلولاً لأمراض مستعصية إلا إنني هنا بصدد الحديث عن الاستنساخ التام وهو استنساخ مخلوق كامل .

لقد ثار جدل كبير فيما يتعلق بهذا الموضوع خلال الأعوام الماضية منذ أن أدعى البعض استنساخ النعجة الشهيرة بـ (دولي) .

ثم ما تلى ذلك من محاولة بعض من يدعون العلم في الغرب من الرغبة في تطبيق فكرة الاستنساخ على البشر وهذا ما لن ينجح او يفلح أبداً أو لا حتى في مراحله الأولى .

ورغم انه نجح على الحيوانات كما يدعون كما هو الأمر بالنسبة للنعجة ألمسماه (دولي) والتي ولدت بطريق الاستنساخ كما يدعون . لذلك فإنني أرى انه يجب على العالم وبالذات العالم الإسلامي وعلماءه أن يبذلوا جهودهم حتى لا تتم مجرد محاولة ذلك الأمر لأن هذا الأمر سيؤدي إلى كإرثه تحل بالبشر قبل أن يتم مثل هذا العمل .

هؤلاء العلماء الذين يحاولون تطبيق هذه العملية على الجنس البشري سيحل بهم وربما يحل بالعالم جراء فعلتهم الشنيعة تلك كارثة عظيمة لا تبقي ولا تذر . لذا فإنني أرى أن

من واجبي أن استنهض همة علماءنا ومشايخنا من أهل الرأي أن يقفوا في وجه تلك المحاولة البائسة الشنيعة والفكرة البلهاء التي ستجر على العالم البلاء والويل ، وذلك البلاء لن يكون

نتيجة تنفيذ تلك ألفكره لأنني أرى أنها لن تنفذ مهما وصل اؤلئك الملحدون إلى درجة من درجات العلم وذلك لأن هذا الأمر هو فقط من اختصاص الله سبحانه وتعالى وكل من أراد أو حاول أن يتطاول على الله سبحانه وتعالى ويتجرأ على هذا الأمر سيهلكه الله تعالى عدا عما سيناله في الآخرة من الخزي العظيم لذلك فيجب على أهل الرأي من علماء الأمة الإسلامية أن يبذلوا جهودهم لتبرأ ذمتهم أمام الله تعالى .

قد يرى البعض أن هذا الكلام غير واقعي خصوصاً وانه قد تم وكما يدعون استنساخ حيوانات ويضنون انه كما نجحت تلك التجربة على الحيوان قد تنجح على الإنسان أيضاً ، ولكنني أقول لهم لا وألف لا ، لن تنجح هذه العملية على البشر ولو اجتمع كل أطباء الأرض فهم لن يستطيعوا أن ينفذوا مثل تلك العملية بنجاح ولا حتى في مراحل الطفولة الأولى ولا حتى أن يولد ذلك المولود البشري حياً مهما حاولوا إلى ذلك سبيلا .

وهؤلاء العلماء الذين يدعون أن لهم القدرة على ذلك هم تماماً أمثال فرعون لأنهم يفكرون بعقولهم ويحسبون حساباً لجميع المعطيات المادية والعلمية التي يريدون أن ينفذوا بواسطتها تلك الجريمة النكراء ولكنهم كما قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[الأعراف: ١٧٩].

اؤلئك الذين يحملون في صدورهم قلوب غافلة لا إيمان فيها ، وان كانوا فعلاً قد استطاعوا أن يستنسخوا حيوانات كما يقولون فذلك لأن الله تعالى كما قال في محكم التنزيل ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[البقرة: ١٥]، وقال تعالى ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٦] ، وهنا يجب أن لا ننسى أنهم بعد النعجة

(دولي) وباعترافهم قد قاموا بآلاف المحاولات لاستنساخ حيوانات ولم تنجح تلك المحاولات وكانت تنتهي اغلبها بالفشل الذريع في مراحل الأجنة وبعضها بعد الولادة مباشره كما تؤكد ذلك الكثير من التقارير التي نشرت بهذا الشأن ، وقد حاولوا أيضاً تطبيق محاولات لاستنساخ قرده وأيضاً لم تنجح تلك المحاولات حتى هذه اللحظة فكيف سينجحون بذلك على الإنسان ؟ قد يقول قائل أنهم كما نجحوا في استنساخ (دولي) سينجحون باستنساخ البشر وأقول لهم إن الأمر ليس كذلك وذلك لأن سنة الله تعالى لا تتغير ولا تتبدل مصداقاً لقوله تعالى ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣].

وقد أكد رب العزة سبحانه وتعالى هذه الحقيقة في أكثر من سوره من سور القرآن الكريم وهي بقاء سنة الله تعالى دون تبديل أو تغيير قال تعالى ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠] ، وقال تعالى ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢] ، وقال تعالى ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٣] ، إن الاستنساخ الذي يدعون إن حصل فسيكون بحد ذاته معجزه أو أحدى المعجزات التي لا يستطيع أن يأتي بها إلا رب العزة سبحانه وتعالى ، وتلك المعجزات هي ثلاثة فقط لا رابع لها قد ذكرتها سابقاً في صفحات هذا الكتاب ولا ضير من إعادتها هنا للضرورة وهي الأولى : إنسان من غير ذكر ولا أنثى وهو آدم عليه السلام ، والثانية إنسان من ذكر بلا أنثى هي حواء التي خلقها الله تعالى من ضلع آدم ، والثالثة هي إنسان من أنثى بلا ذكر وهو عيسى عليه السلام .

وإذا تم لمدعي الاستنساخ البشري ذلك الأمر والعياذ بالله فهم سوف يأتون بإنسان من أنثى بلا ذكر أو إنسان من بويضة بلا مني ويجعلون منه بشراً فكيف سيتم لهم ذلك ؟ حاشا وكلا فلن يستطيعوا إلى ذلك الأمر سبيلا وبالذات مع الإنسان ، أما بالنسبة للحيوان فإنني شخصياً لا اسلم بحقيقة ما ورد عن استنساخ النعجة (دولي) اصلاً فقد تكون الحقيقة

ليست كما يدعون ، وقد تكون الشهرة والكسب هو الذي دفع بعضهم للادعاء انه تمت عملية الاستنساخ ، فقد يكون الصواب أن تلك النعجة قد أتت من تلقيح خارج الرحم كما يتم في طفل الأنابيب ثم تمت زراعة البويضة في رحم نعجة أخرى وابتغاء الشهرة والكسب تم تصوير الأمر على انه استنساخ . أما بالنسبة لنا نحن المسلمون فنعتمد كتاب الله سبحانه وتعالى دستوراً ومنهجاً .

ويقول رب العزة سبحانه وتعالى في محكم التنزيل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣ - ٧٤] ، وهذا هو الصواب الذي اقره رب العزة سبحانه وتعالى فهم لم ولن يستطيعوا أن يخلقوا نعجة ولا فأراً ولا ذبابه ولا اكبر من ذلك ولا اصغر . وهنا قد يقول قائل إن الخالق هو الله سبحانه وتعالى في طفل الأنابيب وفي التلقيح الاصطناعي وفي الاستنساخ وفي أي أسلوب آخر قد يأتي منه مخلوق جديد وأقول رداً على ذلك إن هذا الكلام حق أريد به باطل والحق أن كل مخلوق على وجه الأرض لن يكون إلا بقدر الله تعالى وعلمه وإرادته ، والباطل هو أن يدعي مدعٍ بان الاستنساخ لا يعتبر خلقاً ، بل انه يعتبر كذلك لأنه تغيير وتبديل لسنة الله تعالى في الخلق والإيجاد ، وكذلك فإننا إذا عدنا إلى الفعل [(خَلَقَ) فسوف نجد أن من معانيه قدر وأبدع وصنع واخترع على غير مثال سابق][1] .

وقد توقفت كثيراً عند هذه الكلمة لأن معناها الظاهر هو أوجد وما دعاني لاقف عندها هو : هل الخلق يعني الإيجاد من العدم أم انه يعني الإيجاد من العدم والإيجاد من الموجود ؟ ومع العلم أن الإجابة على هذا السؤال موجودة في القرآن الكريم إلا أنني خشيت أن لا أكون قد اهتديت فعلاً للإجابة الصحيحة . أما الإجابة التي قصدتها فهي قوله تعالى

---

(١) المعجم الوسيط ١/ ٢٥٢ .

عن عيسى عليه السلام ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ [المائدة: ١١٠] ،فقد أطلق رب العزة سبحانه وتعالى على ما صنعه عيسى عليه السلام اسم الخلق مع أن عيسى عليه السلام لم يوجد ذلك الطير من العدم وبالتالي فان الاستنساخ يعتبر خلقاً وذلك لأنه معجزة إيجاد جديدة غير تابعة لسنة الله تعالى في الخلق وذلك لأنها تغيير في اصل الإيجاد وهو استبدال النطفة بالخلية . وكذلك فان الله سبحانه وتعالى قد خلق من العدم وأطلق على ذلك اسم خلق وأيضاً خلق من التراب ومن الماء وأطلق عليه كذلك اسم خلق وبالتالي فليس بالضرورة أن يكون الخلق هو الإيجاد من العدم ، بل إن الخلق يمكن أن يطلق على كل صورة جديدة من صور الإيجاد يتم فيها تغيير الأصل أو سنة الخلق .

وقد أطلق رب العزة سبحانه وتعالى على جميع المخلوقات الحية خلقاً ، الإنسان والحيوان، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٩] ، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾[الروم: ٢٠]، وقال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ [الأنعام: ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ﴾[النحل: ٥]، وقال تعالى:﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ﴾[النور:٤٥]، وقال تعالى: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾[الزمر: ٦]، وقال تعالى:﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾[الرعد:١٦]

وبالتالي فان تغيير سنة الخلق والتحكم بالتكوين بحد ذاته يعتبر خلقاً لذلك فانه لا يمكن أن يتم وبالذات مع الإنسان وذلك لأن الحيوانات أمرها مختلف تماماً عن الإنسان لأنها ليست مكلفه ولأن الله تعالى سوف يصيرها يوم القيامة تراباً فلا حساب عليها يستوجب دخولها الجنة أو النار أما أمر البشر فهو مختلف تماماً لأنهم سيعرضون للحساب لتكليفهم وسيكون مصير كل واحد منهم إلى الجنة أو إلى النار فهل سيكون من بينهم مخلوق محاسب

تحكم بصياغة تكوينه بشر ؟ حاشا وكلا فقد حدد الله سبحانه وتعالى مراحل تكوين الإنسان وخلقه في كثير من آيات القرآن الكريم قال تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾[النحل: ٤ ٧]. وقال تعالى ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾[الكهف: ٣٧]، وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ ﴾[الحج: ٥] وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٤] ، وقال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [فاطر: ١١]، وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[يس: ٧٧]، وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾[غافر: ٦٧]، وقال تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾[النجم: ٤٥ – ٤٦]، وقال تعالى ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾[القيامة: ٣٧ – ٣٩]، وقال تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[الإنسان: ٢]، وقال تعالى ﴿ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٨ – ٢٢].

إذا قمنا باستعراض الآيات القرآنية التي تتحدث عن مراحل وسنن خلق الإنسان فسوف نجد أن جميع تلك الآيات تتفق على أن اصل وجود الإنسان في السنن الكونية هو

النطفة فلا بد حتى يتكون الإنسان من مرحلة النطفة وهي أول مراحل تكوين وخلق الإنسان بعد مرحلة التراب وعليه فلا يمكن أن يتكون الإنسان من خلية أو من أي أمر آخر ، فلا بد حتى يتكون الإنسان من أن يأتي من الأصل ، والأصل في خلق الإنسان في السنن الكونية التي أوجدها الله سبحانه وتعالى هي المراحل والأطوار وأول هذه المراحل هي مرحلة النطفة فلا يمكن أن يأتي إنسان من غير أصله الذي نص عليه القرآن الكريم ولو حدث ذلك لكان آية خلق جديد ولا يمكن أن يأتي بالآيات إلا الله سبحانه وتعالى أو أن ينيب عنه رسول كريم لإحداثها كما كان الأمر مع عيسى عليه السلام ومع غيره من الأنبياء الكرام .

من هنا فان استنساخ الإنسان بالذات أمر مستحيل لا يمكن أن يحدث ، وكذلك هو الأمر بالنسبة للقردة أو الخنازير حيث أن من يقومون بمثل هذه العمليات من الاستنساخ اعترفوا أنهم لم ينجحوا في تطبيق هذا الأمر على القردة ومعلوم أن القردة والخنازير مشابهه للإنسان من حيث التكوين الكروموزومي للجسم ، فالقردة والخنازير هي اقرب المخلوقات في التكوين من الإنسان ، وإذا عدنا إلى النظرية الغبية المعروفة والمشهورة لداروين عن اصل النشوء والتطور والذي يقول فيها إن الإنسان في الأصل كان قرداً ثم تطور مع مرور الزمن حتى أصبح انساناً[1] .

فربما قد دفعه التشابه الكبير الذي رآه ما بين الإنسان والقرد أن يأتي بهذه لنظرية الخاطئة والتي يكمن خطأها في هذه النقطة بالذات بعكس الحقيقة . حيث إن الحقيقة هي أن

---

(١) مع العلم أنه قد تبين لعلماء غربيين بطلان هذه النظرية حديثاً حيث أثبت أولئك العلماء بطلان تلك النظرية بعد أن أكتشفوا هيكلاً عظمياً قديم في اثيوبيا يثبت أن أصل الإنسان هو إنسان وليس قرد في خبر بثته قناة الجزيرة بتاريخ ٢/ ١٠/ ٢٠٠٩ وهو نفس اليوم الذي أعلن فيه العلماء ذلك الإكتشاف العظيم.

أصل القرد إنسان وليس العكس ودليل ذلك موجود في كتاب الله سبحانه وتعالى حيث أن القرد هو إنسان ممسوخ وكذلك الخنزير مصداقاً لقوله تعالى ﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[المائدة: ٦٠] مع العلم أن القردة والخنازير التي مسخها الله سبحانه وتعالى ليست القردة والخنازير الموجودة حالياً على الأغلب وذلك لأن من مسخهم الله تعالى قردة وخنازير لا نسل لهم كما اخبر بذلك رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن عبدالله بن مسعود وفيه قال : فقال رجل : يا رسول الله ! القردة والخنازير ، هي مما مسخ ؟ فقال النبي ﷺ : ((إن الله عز وجل لم يهلك قوماً، فيجعل لهم نسلاً . وان القردة والخنازير كانوا قبل ذلك)) [1] . وفي رواية قال : وذكرت عنده القرده . قال مسعر : واراه قال والخنازير من مسخ . فقال : ((إن الله لم يجعل لمسخ نسلاً ولا عقباً . وقد كانت القرد والخنازير قبل ذلك))[2].

وعليه فان الصواب هو أن القردة والخنازير هم بشر ممسوخون وقد اثبت العلم الحديث أن هذان النوعان من الحيوانات هما اقرب أو أكثر الحيوانات شبها بالإنسان من الناحية الكروموزومية والتكوينية حيث أن تقنية ترقيع جلد الإنسان في بدايتها كانت بواسطة اخذ جلد من الخنزير وذلك للتطابق الكبير جداً ما بين جلد الإنسان وجلد الخنزير ، وبالتالي فان العلم مهما تطور ومهما برع فلن يتمكن من استنساخ قرد أو خنزير أو إنسان وبالذات الإنسان . أما بالنسبة للحيوانات فان صدقوا بأنهم قد استطاعوا استنساخ نعجة ولا أظن ذلك ولكن كما قال رب العزة سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الزخرف: ٨١]، فان افترضنا جدلاً أنهم فعلا قد قاموا بذلك فإننا إذا عدنا للقرآن الكريم

---

(١) مسلم ١٦/ ١٧٥.

(٢) مسلم ١٦/ ١٧٥.

فسوف نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى عندما تحدث عن خلق الأنعام لم يحدد السنة في خلقها سوى في آية واحدة فقط وهي مفتوحة على أكثر من احتمال ، وتلك الآية قوله تعالى في سورة النور ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾[النور: ٤٥].

فقد رد الله سبحانه وتعالى اصل الخلق في الدواب وهي غالباً الأنعام لأن الأصل في دابة من دب ودبا أي سار ومشى وهذه الصفة تشترك فيها الدواب والإنسان أيضاً ولكنها في الآية الكريمة جاءت لتدل على الأنعام فقد رد سبحانه وتعالى الأصل في خلقها إلى الماء ، وكلمة الماء هنا تحتمل أكثر من دلالة لأنها قد تعني ماء الإخصاب وهو المني ، وقد تدل على الماء بإطلاقه وذلك أن جسم الإنسان وكذلك جسم الحيوان يتكون من نسبة كبيرة من الماء وكذلك فان الخلية والبويضة تتكون من الماء وهذا يقودنا إلى احتمال إمكانية استنساخ الحيوان مع الضعف الشديد في هذه الاحتمالية . أما بالنسبة للإنسان فهي مستحيلة بكل أبعاد معنى الكلمة . ولاحظ أيضاً أن رب العزة سبحانه وتعالى عندما تحدث عن خلق الإنسان وخلق الحيوان في نفس الآية الكريمة كيف انه حدد سبحانه وتعالى خلق الإنسان بالنطفة بينما ترك احتمال خلق الحيوان مفتوح على احتمالات أخرى قال تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل: ٤ – ٥].

نلاحظ كيف أن رب العزة سبحانه وتعالى حدد خلق الإنسان عن طريق النطفة في هذه الآية وفي كثير من الآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان ، ولاحظ كيف انه سبحانه وتعالى عندما تحدث عن خلق الأنعام لم يحدد السنة في خلقها من النطفة في كل الآيات التي وردت في القرآن الكريم بشأن خلق الأنعام فلم تحدد أي آية منها خلق الأنعام من النطفة بتاتاً إلا في الآية التي ذكرت سابقاً والتي حددت الخلق من الماء ، أما في هذه الآية الكريمة من سورة النحل فلم يحدد سبحانه وتعالى السنة في خلق الأنعام نهائياً إنما قال تعالى ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ ﴾[النحل: ٥] وهذا يجعل إمكانية استنساخ الحيوانات وارده مع ضعفها كما ذكرت

سابقاً لأنه لا يوجد تحديد للنطفة التي يجب أو يشترط توافرها في خلق الأنعام وهذا تابع لأمر الله سبحانه وتعالى الذي أمره بين الكاف والنون إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون . أما الأصل في النطفة لغةً فهي من النطف وسميت النطفة بذلك لأنها تنطف من ذكر الرجل نطفاً أي أنها تقذف قذفاً فتتدفق تدفقاً مصداقاً لقول رب العزة سبحانه وتعالى ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق: ٥ – ٧].

وعليه فلا يمكن أن نطلق على الخلية نطفة وذلك لأن الفارق بينهما جلي واضح ، فالنطفة بحد ذاتها مخلوقة بدقه وإتقان ولا يمكن أن يأتي بها احد دون إرادة رب العزة سبحانه وتعالى مصداقاً لقوله تعالى﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٥٩] ؟ بل أنت يا بديع السماوات والأرض . فهذه سنة الله تعالى في خلقه أن اختص سبحانه وتعالى بالخلق البشري فلم يدع هناك مجالاً للبشر في التدخل فيه مصداقاً لقوله تعالى﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾[الشورى: ٤٩ – ٥٠].

فسبحان الله العليم القدير وتعالى الله عما يصفون . إن اولئك الذين يدعون ويزعمون أنهم قادرون على أن يأتوا بإنسان من غير أصله بواسطة الاستنساخ ويدعون زوراً وبهتاناً أنهم يريدون بذلك أن يقدموا السعادة لمن حرموا من الإنجاب فلما لا يحاولوا أن يجعلوا من الرجل الغير قادر على إنتاج حويمنات حية أو الأنثى الغير قادرة على إنتاج بويضة قابله للإخصاب لما لا يحاولون جعلهم قادرين على ذلك ؟ والجواب على ذلك بالطبع هو أنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا ذلك . اوليس ذلك الأمر أهون من أن يأتوا بإنسان بالاستنساخ الذي يزعمون ؟ ....

وهنا قد يقول قائل : لقد نجح العلم في أمور كثيرة في مجال الإخصاب والتلقيح كطفل الأنابيب مثلاً فأقول : إن الأمر في ذلك مختلف تماماً لأن عملية أطفال الأنابيب تتوافر فيها النطفة والبويضة فهي أمر مختلف كلياً عن الاستنساخ أما الإشكال الكبير والعظيم في

الاستنساخ البشري هو محاولة إيجاد إنسان مكرم محترم من غير أصله أو خلق إنسان محترم مكرم من غير أصله واقصد في الأصل هنا مراحل وأطوار تكوين الإنسان وهي النطفة اولاً ، ثم العلقة ، ثم المضغة ، ثم العظام ، ثم اللحم ، ثم الإنشاء ، أما في عملية الاستنساخ فيحاول اولئك الملحدون القائمون على تلك التجارب في هذا المجال تجاوز أكثر من مرحلة من مراحل التكوين وبالذات مرحلة النطفة وهي المرحلة الأساسية للإيجاد وهم بذلك يريدون أن يغيروا اصل تكوين الإنسان وسنة الله في الخلق ويستبدلوا النطفة في الخلية ثم يقوموا بالتحكم بنوعية المولود المستنسخ ذكراً أو أنثى وبالتالي فهم يريدون الاستغناء عن الرجل نهائياً بحيث يصبح وجوده ليس ضرورياً لإنتاج إنسان جديد ، ويريدون كذلك أن يتطاولوا على الله سبحانه وتعالى في عليائه فيخلقوا خلقاً كخلقه وهذا ما لن يحدث ابداً ولكن القلوب الفاسدة والعقول العقيمة تنتج دائماً افكاراً سامة قاتله ، تلك هي العقول التي أباحت سابقاً في مجتمعاتها الشذوذ والإباحية فسنت قوانيناً تبيح لأصحاب النوع الواحد من التزاوج ليتزوج الرجل بالرجل والأنثى بالأنثى فليس غريباً عليهم اذاً أن يبحثوا عن التطرف في جميع المجالات ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم

العلاقة بين العقل والقلب

العقل:

أما السؤال المهم والذي لا بد من الإجابة عليه بشكل دقيق فهو هل عقل الإنسان في رأسه أم في قلبه ؟!!! اختلفت الاراء في هذا الأمر فمن قائل أن عقل الإنسان في رأسه وذلك العقل مركزه يعرف فيما يسمى (بالدماغ) وهذا هو السائد غالباً

أما الطرف الآخر فقال: إن عقل الإنسان في قلبه وليس في رأسه مستدلاً على ذلك بالآية الكريمة من سورة الحج قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] ، مع العلم أن هناك آية أخرى في كتاب الله تعالى تؤكد هذا المعنى وهي قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ، هذه الآية الكريمة أكدت بدورها أن الإنسان يفقه بقلبه وليس بعقله وهو ما دلت عليه الآية السابقة أيضاً .

وإذا ما كان الأمر كذلك فلا بد أن يطرأ السؤال التالي وهو ما دام إن الإنسان يفقه بقلبه فما هو دور الدماغ إذاً ؟ وهنا يحار اللبيب !! .

من هنا فإنني أريد أن أوضح ذلك الأمر وأقول : إن من قال إن الإنسان يفقه ويعقله قد وضع يده على جانب واحد فقط من الحقيقة ، ومن قال إن الإنسان بفقه بقلبه قد وضع يده أيضاً على جانب آخر من الحقيقة والتي سوف أبينها بشقيها في هذا الباب إن شاء الله تعالى من خلال الابتداء بطرح السؤال التالي وهو : هل للإنسان عقل واحدٌ أم عقلين ؟ وحتى لا أدع الأخ القارئ ينتظر حتى نهاية الباب لمعرفة الجواب فإنني سأجيب على هذا السؤال في البداية وأؤكد إن للإنسان عقلين وليس عقلاً واحداً وسوف أثبت ذلك من خلال تفصيل هذا الأمر فيما بعد :

وحتى يميز الأخ القارئ ما بين العقلين فإنني أريد هنا أن أطلق على كل عقل منهما اسماً يميزه عن الآخر وأبدأ اولاً بالعقل الذي في الرأس ومركزه الدماغ لأطلق عليه اسم

(العقل المادي) وأطلق على العقل الآخر وأقصد به عقل القلب اسم (العقل الفطري أو الروحي) وفيما يلي توضيح وتعريف لاختصاص كل من العقلين :

أولاً : الدماغ أو عقل الرأس (العقل المادي أو العقل العلمي) وهذا العقل هو المختص بالمنطق الصحيح وسلامة التفكير وهو عقل مادي يقيس الأمور ويميز بينها من مبدأ الخطأ والصواب ، المنطقي وغير المنطقي ، الممكن وغير الممكن ، المعقول واللامعقول ، الجائز وغير الجائز وما إلى ذلك .

هذا العقل هو الذي ميز به الخالق سبحانه وتعالى البشر أو بالأصح (الإنس والجن) عن بقية المخلوقات الأخرى وأقصد بها (البهائم والدواب) . أطلقت على هذا العقل اسم العقل المادي لأنه هو الذي يستخدمه الإنسان ليميز به الماديات والسلوكيات ، ومن الأمثلة على ذلك إن الإنسان إذا ما أراد أن يتصرف تصرفاً ما او ينطق كلمة ما ، او يعمل عملاً ما فإنه يستخدم عقله المادي لأنه بواسطة ذلك العقل المدرك المميز يستطيع أن يميز إذا ما كان تصرفه صحيحاً أو غير صحيح ، منطقي أم غير منطقي ، جائز أم غير جائز .. إلخ .

ذلك العقل يتفاوت به الناس بين الذكاء والغباء ، وإذا ما فقد الإنسان ذلك العقل أصبح مجنوناً لا يميز بين خطأ وصواب .

أما العقل الثاني وهو عقل القلب أو (العقل الفطري) فهو عقل آخر خاص بالإيمانيات والغيبيات والروحانيات دون غيرها وليس له علاقة بالذكاء ، ومع ذلك فهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً ويعتمد على وجود العقل المادي وذلك لأن الإنسان دون عقل مادي هو إنسان مختل مرفوعٌ عنه القلم لأنه فاقدٌ لعقل الإدراك والتمييز الذي يميزه عن بقية المخلوقات ، فإذا ما اختل العقل المادي أصبح صاحبه معفياً من الناحية القانونية ومن الناحية الشرعية أيضاً .

هذا العقل وأقصد به (العقل الفطري) ميز الله سبحانه وتعالى به ما بين البشر بعضهم بعضاً ، أقصد بذلك أن الله تعالى ميز بالعقل الفطري ما بين البشر مؤمنهم وكافرهم وكذلك ما بين الجن مؤمنهم وكافرهم ، فأعطى سبحانه وتعالى المؤمن قلب يعقل بينما أعطى الكافر قلب لا عقل له ، وميز الله سبحانه وتعالى ما بين القلبين حيث جعل قلب المؤمن قلب صالح أي (عاقل) وجعل قلب الكافر قلب فاسد أي قلب (بلا عقل) وبين سبحانه وتعالى ذلك في كتابه الكريم بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨ – ٨٩] ، وكذلك في السنة المطهرة في الحديث الشريف المتفق عليه قوله ﷺ : ((ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)) [١] .

من هنا استطيع القول أن الفارق ما بين العقل المادي والعقل الفطري أن أحدهما وأقصد به المادي هو عقل يحتمل التفاوت ما بين البشر أي أنه ليس بنفس القدرات عند جميع الأشخاص ، فمن الناس من يكون ذكياً ومنهم حاد الذكاء ، ومنهم أقل ذكاءاً ، ومنهم الغبي ومنهم من لا عقل له أبداً .

اما العقل الفطري فهو إما موجود او مفقود ، فإذا ما كان مفقوداً كان صاحبه والعياذ بالله شقياً ملحداً مهما كانت درجته العلمية وأو ذكائه المادي ، وأقصد بالشقاء هو (الشقاء الأبدي) الذي ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ : ((ثم يرسل الله إليه الملك ويؤمر بأربع كلمات رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد)) (بعض من حديث تم تخريجه سابقاً .

أما إذا كان ذلك العقل موجوداً كان صاحبه من أهل السعادة لأن عقل القلب (الفطري) هو الذي يحدد مصير الإنسان الآخروي وليس الدنيوي .

---

(١) بعض من حديث متفق عليه – رياض الصالحين – ص ٢٢٣ – ح ٥٨٨ .

إن من اكبر المميزات التي ميز بها رب العزة سبحانه وتعالى الإنسان عن غيره من المخلوقات وجعله به خليفة على الأرض هو العقل ، فهل ميز الله سبحانه وتعالى الإنسان عن بقية المخلوقات بالعقل فقط ؟ أما الجواب على هذا السؤال فله أكثر من محور ، وقبل أن انتقل لمحاور الإجابة على هذا السؤال لا بد لي من أن اذكر هنا انه قد يعبر بكلمة القلب أحياناً عن العقل ، وذلك لأن قلب كل شيء هو وسطه ولبه وجوهره وأساسه . أما المحور الأول من جواب السؤال المطروح أنفاً هو أن البشر بشكل عام قد ميزوا عن المخلوقات الأخرى بالعقل الذي هو مناط التكليف من البشر بدليل قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤] .

هذه الآية الكريمة تصف حال المشركين وتشبههم بالإنعام لأنهم لم يستطيعوا الاستفادة من أسماعهم وعقولهم ويصلوا بها إلى الحقيقة الساطعة التي جاء بها أنبياء الله عليهم السلام ، والسبب في ذلك أنهم اتخذوا الهوى (هوى أنفسهم) إلهً لهم من دون الله فصرفهم ذلك عن النظر في آيات الله تعالى والبحث عن الحقائق وتصديق الدعوة .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢] ، وفي آية أخرى يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ، فقد ميز رب العزة سبحانه وتعالى بين الإنسان والحيوان في الدرجة الأولى بالعقل الذي هو مناط التكليف من الإنسان والدليل على ذلك إن فاقد العقل معفى من التكليف والدليل على ذلك القاعدة الفقهية التي تقول (إذا اخذ الله ما أوهب اسقط

ما أوجب) وكذلك حديث رسول الله ﷺ: ((رفع القلم عن ثلاث ، عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يعقل)) [١] .

فالإنسان مكلف شرعاً بسبب ما أعطاه الله تعالى من عقل ، ويصبح الإنسان مطالب بالتكاليف الشرعية عندما يكون بالغاً عاقلاً راشداً . فالبلوغ هو سن التمييز وقد حدده بعض علمائنا الأفاضل بخمسة عشر عاماً وهو مذهب الشافعي وابن وهب والاوزاعي واستدلوا عليه بحديث ابن عمر قال : (عرضني رسول الله ﷺ يوم احد في القتال . وأنا ابن أربع عشرة سنه . فلم يجزني . وعرضني يوم الخندق ، وأنا ابن خمسة عشرة سنه . فأجازني) [٢]

أما الرشد فهو الهدى والحكمة وسداد الرأي ، وقد ورد لهذه الكلمة أكثر من معنى منها الهدى وحسن التصرف ، الخير والصلاح ، الصواب ، الاهتداء إلى طريق الحق ، النبوة . أما أكثر ما دلت عليه هذه الكلمة في القرآن الكريم فهو الهدى والصلاح وسداد الرأي.

ويختلف الرشد من شخص إلى آخر ، فقد يبلغ بعض الناس من الكبر عتياً دون أن يصلوا إلى هذه المرحلة وقد يصلها آخرون في سن مبكرة كما جاء في القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام قول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١] ، إن ورود كلمتي (من قبل) في الآية الكريمة قد تحمل أكثر من معنى ، فقد يكون المعنى من قبل نزول القرآن الكريم على محمد ﷺ أي في الأوقات الماضية ، ويحتمل أيضاً وهو الأقرب إلى المعنى إن الله سبحانه وتعالى قد آتى إبراهيم الرشد قبل الأوان وذلك لأن الإنسان غالباً لا يصل إلى مرحلة الرشد إلا في وقت متقدم من العمر وهو غالباً سن الأشد وهو أربعين عاماً مصداق ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ

---

(١) أخرجه أبو داوود والترمذي ، الفقه الميسر ٧٩ .

(٢) مسلم ١٣/ ١٢ .

وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥] ، مع العلم أن كلمة أشده تعني بلوغه قوة البدن ونهاية النمو ، وقد تسبق هذه المرحلة سن الأربعين إلا أنها لا يمكن أن تسبق سن البلوغ وذلك لأن الإنسان قبل سن البلوغ يكون لا يزال في مرحلة النمو وعليه فإنني أرى أن المراد من قوله تعالى (من قبل) في حق إبراهيم عليه السلام هو أن الله تعالى أتاه الهدى والصلاح والحكمة وسداد الرأي قبل أن يبلغ الأوان أو السن المناسب لتلك المرحلة وبمعنى أوضح إن الله سبحانه وتعالى قد آتى إبراهيم رشده وهو ما زال صغير السن، ويؤكد ذلك سيرة إبراهيم عليه السلام ، تلك السيرة الحافلة في المواقف المميزة التي تدل على النبوغ والحكمة والعبقرية للخليل عليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام .

أما المحور الثاني فهو أن الله سبحانه وتعالى قد ميز بين البشر أنفسهم بالقلوب وليس بالعقول باستثناء التمييز طبعاً بين العاقل والمجنون ، لأن هذا التمييز سببه عدم سلامة العقل بالنسبة للمجنون ، فالتمييز ما بين بني البشر العقلاء هو بالقلوب وليس بالعقول ، وذلك أن التمييز الأول وهو بالعقل كان للبشر عن بقية المخلوقات . أما التمييز بالقلوب فهو ما بين صنفين من البشر وهما الصنف المؤمن والصنف الكافر فكيف يكون ذلك ؟ إن من أهم مكونات الإنسان ومميزاته هما العقل والقلب معاً ففي ايهما يفقه الإنسان ؟ هل يفقه الإنسان بعقله أم بقلبه ؟ بناءاً على ما ذكرت آنفاً فإنني ارى ان الإنسان يفقه بعقله كل ما يتعلق بالأمور المادية والمنطقية والعلمية التي تعتمد الخطأ والصواب مقياساً لها ، ويفقه بقلبه فيما يتعلق بالامور العقائدية والدينية أي (الأمور الروحانية) .

وسوف أقوم بتوضيح هذا الأمر بشكل اكبر في سياق هذا الموضوع إن شاء الله تعالى في حينه ولكن قبل ذلك لا بد لي من القول إن العقل هو الجوهرة النفيسة والدرة الثمينة في الإنسان ، وهو أي العقل درة الجوارح في هذا الخليفة الذي ميزه الله تعالى عن جميع المخلوقات ، وبواسطته يستطيع الإنسان مؤمناً كان أم كافراً من الفهم والإدراك والإدارة ، وبواسطته يستطيع الإنسان معرفة الخطأ من الصواب والضار من النافع ، والسيئ من الجيد ،

وبواسطته يستطيع الإنسان الوصول إلى أعلى درجات العلم ، أما بالنسبة للحق والباطل وإدراك المعجزات الربانية والنبوية فان الإنسان لا يستطيع الوصول إليها وإدراكها بواسطة العقل فقط بل لا بد فيها من إشراك القلب. واقصد بالحق والباطل هنا الدين والإيمان خصوصاً مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ ﴾ [البقرة: ١١٩] .

من هنا نستطيع القول أن العقل يعتمد على القلب وليس العكس وبالذات بالنسبة للإيمانيات دون غيرها ، أي أن الإنسان يفكر بمنطقه العقلي تبعاً لحالة قلبه ، فإذا كان القلب فاسداً كان بحث العقل وأفكاره تتجه بالاتجاه المادي والعلماني والدنيوي ، أما إذا كان القلب صالحاً وسليماً فان أفكار صاحبه ستكون إيمانية دينية وليست مادية لأن قلب الإنسان هو الذي يتحكم بنوعية تفكير العقل وتوجهه ، ولا يمكن أن تجد إنساناً سليم القلب غير سوي الفطرة لأن القلب إذا سلم استقامت فطرة صاحبه وبالمقابل فانه لا يمكن أن تجد إنساناً سقيم القلب مستقيم الفطرة صحيح أو إيماني التوجه .

وعليه فان الركيزة الأولى في تمييز الإنسان هي العقل وذلك لأن المختل عقلياُ قد اعفي وتسقط عنه جميع التكاليف الشرعية والقانونية بسبب فقدان الأهلية التي توجب التكليف . لقد ميزنا رب العزة سبحانه وتعالى عن سائر المخلوقات واستخلفنا على هذه الأرض وبعث سبحانه وتعالى الرسل لتبليغ الدعوة وإخراج الناس من الظلمات إلى النور . فما هي وظيفة الأنبياء جميعاً ؟ هل بعثوا لتعليم الناس العلم الشرعي أم لتعليمهم العلوم العامة ؟ اقصد بذلك التكنولوجي والطبي والبيولوجي وغيرها من العلوم ؟ والجواب على هذا السؤال هو أن الأنبياء أرسلوا للناس لتعليمهم العلم الشرعي وإخراجهم من الظلمات إلى النور وليبينوا للناس طريق الحق والخير من طريق الشر والباطل. فواجب الرسل هو للتبشير والإنذار وتعليم الناس المقصد من وجودهم واستخلافهم على الأرض وتبليغهم رسالة خالقهم سبحانه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ ﴾ [الأنعام: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ

﴿ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [الإسراء:١٠٥] ، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨] .

هذا هو الواجب الرئيسي للرسل عليهم السلام وهو التبليغ والتبشير والإنذار، وبالمقابل فان أول أسباب الاستخلاف للبشر على الأرض هو العبادة لله تعالى وإجابة الرسل، فعبادة الله تعالى هي الغاية الأولى والأسمى والاهم لوجود الإنسان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، وقال تعالى: ﴿ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ ﴾[النور: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢١] ، وقال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾[النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ ﴾المائدة: ٧٢، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ ﴾ [هود:٥٠]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ ﴾ [هود: ٦١] ، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ ﴾ [هود: ٨٤] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ ﴾ [المؤمنون:٢٣]، وقال تعالى : ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ﴾ [العنكبوت: ١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾[النحل: ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، فهذه صفة مشتركه بين الأنبياء جميعاً بل هي الهدف من إرسال الأنبياء من لدن آدم وحتى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين .

فقد أرسلوا جميعاً للدعوة إلى الله ولإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، لذلك فان الهدف الأول من وجود الإنسان هو عبادة الله تعالى وهي أهم المقاصد ويليها أو يتبعها إعمار

الأرض ويجب أن يكون أيضاً بما يرضي الله تعالى مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ، فإذا ما استجاب الإنسان للدعوة وآمن بالله وعمر الأرض بما يرضي الله يكون قد قام بالواجب الذي وجد من اجله . ولكن الله سبحانه وتعالى عندما خلق البشر لم يجعلهم بمستوى واحد بل ميز بينهم وجعلهم درجات مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[آل عمران: ١٦٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ ﴾[الزخرف: ٣٢] ، وقال تعالى : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٨٣] ، وجاء أيضاً في الحديث عن رسول الله ﷺ ((العلماء ورثة الأنبياء)) [1] وميز رب العزة سبحانه وتعالى بين الناس بالذكاء والقدرات والعلم فخص الأنبياء بالرسالة ، وكرم العلماء بالعلم وجعلهم في مرتبة أعلى من غيرهم حتى جعلهم ورثة الأنبياء مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾[الإسراء: ٧٠] وبالتالي فقد كرم الله تعالى جميع العلماء وفضلهم على غيرهم فجعلهم ورثة للأنبياء ذلك أن الأنبياء عليهم السلام كما جاء في الحديث ((وان الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم . فمن أخذه اخذ بحض وافر))[2] .

ولكن تكريم العلماء مشروط بشرط واحد وهو أن يكون أولئك العلماء على الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها وهي الإيمان بالله تعالى ، ومن انتفت عنه هذه الصفة سقط عنه تكريم الله سبحانه وتعالى ، ذلك أن الإنسان لا يكون مكرماً عند الله إلا إذا كان مؤمناً به عارفاً له سبحانه وتعالى ، وقد نفى رب العزة سبحانه وتعالى التكريم عن الكفار في كثير من آيات القرآن الكريم بل وصفهم أحياناً بأنهم اقل شأناً من الأنعام فوصفهم تعالى في سورة

---

(١) أبو داوود والترمذي ، رياض الصالحين ص٤١٠ ح١٣٨٨ .

(٢) أبو داوود والترمذي ، رياض الصالحين ص٤١٠ ح١٣٨٨

محمد بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ ، ووصفهم بقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ ، وقال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ ، أما السبب في إنقاص شأن تلك الفئة من الناس هو أنهم لم يعملوا بالهدف الذي وجدوا من اجله ، ولأنهم حادوا عن الحق ولم يتبعوه ، لذلك فان الإنسان مهما برع في العلم التكنولوجي ، أو الذري ، أو الطبي ، أو أي علم من العلوم الأخرى فهو لن يكون عالماً بمقياس المولى سبحانه وتعالى وذلك لأن أولى اولويات العلم أن يقود إلى الحقائق .

وأعظم واكبر الحقائق في الوجود هي الحقيقة الأزلية الأبدية ألا وهي وحدانية الله سبحانه وتعالى ، فكيف يكون الإنسان عالماً إذا لم يعلم أولاً وقبل كل شيء ما هو الهدف وما هي الغاية من وجوده . إن الإنسان الذي لا يوصله علمه إلى الغاية والهدف من وجوده يبقى جاهلاً مهما برع في أي علم من علوم الدنيا .

إن من اكبر فوائد العلم هو ازدهار ورفعة البشرية وتأمين مستقبلها ليكون مستقبلاً واعداً ومشرقاً ومزدهراً ليؤمن السعادة للإنسان . ترى لو نظرنا إلى عمر الإنسان كم يبلغ وكم سيعيش الإنسان على هذه الدنيا ؟ إن متوسط أعمار الناس في هذا الزمان هو ما بين الستين إلى السبعين عاماً وقليل من يتجاوز ذلك مصداقاً للحديث الشريف ((أعمار أمتي بين الستين والسبعين)) . ومع ذلك فلنفترض جدلاً أن الغالبية العظمى أو الجميع هم الذين سيتجاوزن ذلك العمر ، ولنجعل الفترة مضاعفه أي مائة وأربعين عاماً ، ترى هذه السنوات بالنسبة لعمر الإنسان أو مكوث الإنسان في البرزخ ، وبالنسبة لحياة الإنسان بعد البعث هل تقارن أو تقاس ؟ الحقيقة أن عمر الإنسان مهما طال في هذه الدنيا فهو لا يقارن أبداً في الحياة الأبدية ، وما دام الأمر كذلك فهذا يعني أن مستقبل الإنسان بل ومستقبل البشرية جمعاء هو ذلك الذي سيكون ما بعد الموت وليس ما قبله ، وذلك هو المستقبل الحقيقي الذي يجب أن نسعى جاهدين لتأمينه ، وذلك المستقبل لا يمكن تأمينه لا بالكمبيوتر ولا في وسائل النقل

الحديثة ولا في الأسلحة الفتاكة ولا في تقنية الاتصالات ولا بجمع الأموال وتكديسها ولا بأي أمر من هذه الأمور وإنما هو فقط بمعرفة الله سبحانه تعالى والإيمان به .

وهنا لا بد من التنويه إلى أن الإيمان بالله تعالى هو كنز لا يقدر بالكنوز ، هذا الكنز قد لا يراه كثير من الناس ثميناً خصوصاً في الدنيا ولكن قيمة هذا الكنز سوف تظهر فيما بعد وقد كاد رب العزة سبحانه تعالى أن يحرم المؤمنين به من كل ما على الدنيا من نعيم زائل ، ولولا رحمته سبحانه وتعالى بالمؤمنين وفضله عليهم لكان ذلك ولحرمهم سبحانه وتعالى من طيبات الدنيا وزينتها ، ولكنه سبحانه وتعالى رحمة منه بعباده لأن لا تغريهم الدنيا ويفتنوا بها ويبتعدوا عن الحقيقة العظيمة التي وجدوا من اجلها أعطاهم من نعيم الدنيا ولولا تلك الرحمة لحرمنا سبحانه وتعالى من طيبات الدنيا وزينتها وجعلها خالصة لمن يكفر به وأعطاهم كل نعيمها ، ولأنه سبحانه وتعالى يعلم ضعف الإنسان أعطانا من طيبات الدنيا وخيراتها ولم يجعلها حكراً على الكفار ، أما حرماننا من الدنيا فلأن الدنيا عند الله سبحانه وتعالى لا تساوي شيئاً مصداق ذلك حديث رسول الله ﷺ ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضه ما سقى كافراً منها شربة ماء)) [1] .

ولأنها كذلك فقد جعل الله سبحانه وتعالى للكافرين فيها النصيب الأكبر ، ومع أن البعض قد يخالفني الرأي في ذلك إلا أنني أؤكد أن ذلك هو الصواب ، لأننا لو قمنا بالمقارنة ما بين الدول الإسلامية والدول الغربية فسوف نلاحظ ذلك ، وذلك أن أغلبية الدول الإسلامية قليلة الموارد نسبياً وميزانياتها لا تعد شيئاً بالنسبة لميزانيات الدول الغربية ، وهنا قد يقول قائل أن هناك دول إسلامية غنية بالموارد خصوصاً النفطية منها ، هذا صحيح ومع ذلك فان موارد النفط التي تأخذها مثل تلك الدول أثماناً للبترول تؤخذ باليمين وتعاد بالشمال ، وذلك أنها تصدر النفط لتعود وتستورد في ثمنه التكنولوجيا الغربية في اغلب المجالات .

---

(١) رواه الترمذي وقال حسن صحيح ، رياض الصالحين ص١٨٨ ح٤٧٧ .

وكذلك كان الأمر في الماضي عندما نقارن الدولة الإسلامية بدولتي الفرس والروم ، لذلك فان الأوضاع المادية دائماً في صالح الكفار والسبب في ذلك أن الله سبحانه وتعالى أراد ذلك ، ولولا رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده لحرمهم من الدنيا وجعلها خالصة للكفار والمشركين والسبب في ذلك كما قدمت هو أن الدنيا لا تساوي شيئاً بمقياس الله سبحانه وتعالى لأنها تافهة حقيرة ومن يكفر بالله فليأخذ التافه الحقير لأنه ليس له نصيب في الطيب العظيم ، والسبب الآخر هو أن الله سبحانه وتعالى يريد الكرامة لعباده المؤمنين فهو سبحانه يدخر لهم المكافأة التي يستحقونها في الآخرة وهي عظيمة وكبيرة لا مجال لمقارنتها في الدنيا وحسبك ويكفيك من أنها كما وصفها رسول الله ﷺ في الحديث الشريف ((فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر)) [1] ، فحتى أحلامك أيها الإنسان وشطح خيالك وعجيب أفكارك واتساع مداركك غير قادرة ليس فقط على تصورها أو تشبيهها بل أنها تعجز حتى أن تكون قادرة على أن تجعلها تخطر لك .

وهنا قد يعتقد الأخ القارئ أنني ابتعدت في الموضوع وفي تصويري للأمر لكنني أقول له أن هذه حقيقة قائمة لا مجال لإنكارها أثبتها لنا رب العزة سبحانه وتعالى في كتابه الكريم قرآناً يتلى إلى قيام الساعة ألا وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٣ – ٣٥] ، هذه الآية الكريمة من سورة الزخرف تخبرنا عن السبب الذي جعل رب العزة سبحانه وتعالى من أجله لم يجعل الدنيا وزينتها وزخرفها خالصة للكفار ، هذا السبب هو رحمته سبحانه وتعالى بعباده ورأفته سبحانه وتعالى بهم من المهلكات وهذا يؤكد ضعف الإنسان وميله للدنيا ، ويبين كم هي شديدة سيطرة النفس على الإنسان .

---

(١) رواه البخاري ، رياض الصالحين ص٥٥٧ ح١٨٩١ .

تخيل حال الناس لو أن الله تعالى أعطى الدنيا بمتاعها كله للكافر ومنع الدنيا بمتاعها عن المؤمن فماذا سيكون حال الناس ؟ والجواب أن الأغلبية العظمى من الناس ستكون امة كفر ابتغاء زينة الدنيا وزخرفها كما بينت الآية الكريمة ذلك ، لهذا جعل الله تعالى لكل من المؤمن والكافر نصيب في هذه الدنيا وهذا من اكبر الأدلة على رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده ، فكن حذراً أيها المؤمن على ما معك من كنز عظيم لا تعدله الدنيا بل لا تعدل منه شيئاً أبداً فمهما أصابك من مصيبة في الدنيا كن حذراً من أن يسلب ذلك منك كنزك العظيم لأن الدنيا بنعيمها ومتاعها أهون من أن تذكر يوم القيامة ، وكما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ " يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغه .

ثم يقال : يا ابن آدم ! هل رأيت خيراً قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة . فيصبغ صبغة في الجنة . فيقال له : يا ابن آدم ! هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله ! يا رب ! ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط " [١] ، من هنا فان هذا ما يجب علينا أن نفهمه فهماً وافياً وان ندركه بجميع كياننا لأنه حقيقة عظيمة يجب أن نغرسها في نفوسنا ونفوس أبنائنا ومن حولنا ، تلك الحقيقة هي تفاهة الدنيا ودنو منزلتها هذا إن كان لها منزلة في الأصل هذه الحقيقة التي فهمها سلفنا الصالح فهانت عليهم الدنيا فاستوى عندهم التبر والتراب . ومع ذلك فلا بأس أن نملك الدنيا بالحلال وبالصدق وبما يرضي الله ، ولكن الحذر كل الحذر أن تملكنا الدنيا فنصبح لها عبيداً ، فلا بأس أن تكون الدنيا في أيدينا ولكن الحذر من أن تكون في قلوبنا .

وهنا يجب التنويه لكي لا يفهم من طرحي هذا أنني ضد التقدم والتطور العلمي والتكنولوجي أو مع التبتل والانقطاع عن الدنيا ولكن قصدي هو انه يجب أن لا نستغل الدنيا على حساب الآخرة ويجب أن ندرك أن للنفس حق ، وللأبناء حق ، وللزوجة حق وان

---

(١) مسلم ١٧/ ١٢٣ .

نعطي كل ذي حق حقه ، وكذلك فان من الواجب علينا كأمه أن نأخذ في العلوم الحديثة وان نبدع فيها حتى لا نتخلف عن ركب الحضارة ، فلا بأس بالأخذ في التقدم العلمي والتكنولوجي والإبداع فيه لأنه من نعم الله سبحانه وتعالى على البشر ، لكن المهم بل والمهم جداً أن لا يكون الأخذ بذلك سببا في خسارتنا في الآخرة ، فالأرض لا يمكن أن تعمر في الجهل والتخلف إنما تعمر في العلم والتقدم ، لذلك يجب أن نأخذ منه ما ينفعنا ليس فقط في الدنيا بل في الدنيا والآخرة ، فتأمين سعادة ومستقبل الإنسان في الدنيا يجب أن لا يكون على حساب المستقبل الحقيقي الذي ننتظره في الآخرة لأن مستقبل الدنيا لا بد زائل ولا احد يستطيع أن ينكر ذلك لأنه الواقع المحتوم مهما حاولنا نسيانه أو تجاهله ، قال تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق: ١٩ – ٢٢] ، ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥] ،

ترى لو عرض على احدنا أن يعطى كل كنوز الأرض وكل علم أهل الأرض مقابل الجلوس على موقد مشتعل من الجمر لمدة شهر واحد أو يوم واحد أو ساعة واحدة مختاراً فهل يقبل بذلك ؟ للوهلة الأولى قد يقول البعض جدلاً اقبل بذلك لأن العرض مغرٍ، أفلا يجرب ذلك المجادل أن يجلس لمد خمس دقائق على سبيل التجربة ثم يعطينا رأيه بعد ذلك . من هنا فإنني استغرب كيف يغامر الإنسان بمستقبل دائم من اجل حاضر زائل !!!!! ثم ما هو ذلك العلم الذي يعلمه من لم يعلم الغاية من وجوده ؟ !!!!!! . لهذا السبب فإنني أرى أن العالم الذي لا يوصله علمه إلى الحقيقة المطلقة التي جاء بها أنبياء الله جميعاً من لدن آدم عليه السلام والتي يشهد بها ولها كل شيء في الكون لا يعد عالماً إنما هو عارف غارق في ظلمات الجهل وبحور الكفر .

لقد بين رب العزة سبحانه وتعالى في كتابه الكريم إن العارفين له والأشد خشية له سبحانه وتعالى من البشر هم العلماء ، ذلك لأن أولى اولويات العلم هو إيصال الإنسان للحق

أولاً وللحقائق ثانياً ، أما الحق والحقيقة الأولى بل وأعظم الحقائق على الإطلاق هي وحدانية الله سبحانه وتعالى ، لذلك فان العالم الحقيقي لا يستطيع أن يتجاهل اكبر الحقائق ويتجاوزها للبحث عن حقائق صغرى ، لذلك كله ميز الله تعالى العلماء بالمعرفة والخشية له سبحانه تعالى بقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩] ، وقال تعالى : ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] ، وقال تعالى : ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦] ، وقال تعالى : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[المجادلة: ١١] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الدخان: ٣٢] ، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] ، فلماذا ميز الله سبحانه وتعالى العلماء بالخشية وبكل هذه الميزات بصفة خاصة ؟.

ذلك لأن عقل العالم أوسع إدراكاً للحقائق من عقول الآخرين ، ومن كانت هذه صفته كان أكثر قدرة للوصول إلى الحق من غيره ممن هم دونه في العلم والعقل ، لذلك يجب أن لا تفوت اكبر الحقائق على العلماء أصحاب العقول النيرة ، ومن فأتته الحقيقة الكبرى والعظمى لم تزده معرفته وسعة إطلاعه على غيرها من الحقائق إلا بعداً عنها وجحوداً بها وبالتالي فهو لن يسمو بمعرفته وعلمه وإطلاعه بل سيبدأ بالانحدار بعلمه الناقص والخلود إلى الأرض ، وما مثله إلا كمثل من ضرب الله مثلاً في كتابه الكريم بقوله تعالى : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ – ١٧٦] ، أما من عرف الحقيقة الكبرى والتزمها فذلك هو العالم الذي يسمو ويرتفع بعلمه ، فكلما ازداد علماً وإطلاعاً ازداد من الله درجة واقتراباً . ما دام الأمر كذلك ، وبما أن هناك من العلماء من هو عارف لله تعالى ومنهم من لا يوصله علمه إلى الإيمان بالله

تعالى فما هو الفارق بين العالم العارف لله تعالى وبين العالم الذي لم يستطع الوصول إلى هذه الحقيقة العظيمة أو أنكرها ؟.

هنا يأتي دور القلب لأننا لو أردنا أن نعقد مقارنه بين هاذين العالمين فسوف نلاحظ أن لكل منهما عقل واعٍ وذكي ، ولدى كل منهما معرفة وسعة إطلاع ، ولدى كل منهما منطق عقلي سليم ، فلماذا يكون إذاً أحدهما عابد لله شديد الإيمان به بينما الآخر ملحد فاسق عاصي ، وما هو الذي يحدد ذلك ؟ والجواب إن الذي يحدد ذلك هو القلب وليس العقل ، وسوف اثبت ذلك من خلال القرآن الكريم وبالذات من خلال الآيات التي تتحدث عن العقل ، والأخرى التي تتحدث عن القلب والتي نستطيع ومن خلالها أن ندرك أن العقل المادي للإدراك وللماديات ، بينما العقل الفطري أو عقل القلب للإيمانيات ، وذلك لأن الفطرة على الإيمان هي للقلب وليس للعقل .

أما بالنسبة لبعض ما جاء عن العقل في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١] ، وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم: ٨]، وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣]، وقال تعالى: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١١]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ

﴿ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الروم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾[الروم: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣]، وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:١٣]. وقال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

أما في الألباب فقد ورد فيها كثير من الآيات في كتاب الله ، قال تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[البقرة:١٩٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[آل عمران:١٩٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[المائدة:١٠٠]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [يوسف:١١١] ، وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الزمر:١٨] ، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[الطلاق: ١٠] ، وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[آل عمران: ٧] ، وقال تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[إبراهيم: ٥٢] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩] ، وقال تعالى: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٢١] ، وقال تعالى: ﴿ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[غافر: ٥٤].

من خلال الآيات القرآنية المذكورة نلاحظ أن الآيات الدالة على وجود الله وقدرته ، وضرب الأمثال ، وقص القصص ، هي أمور نستطيع أن نصل من خلالها وبواسطة العقل إلى الحقائق ، هذه الآيات الكريمة تتحدث بصفة خاصة عن العقل أو اللب ، وإذا قمنا باستعراضها فسوف نلاحظ أيضاً أن الغالبية العظمى منها بل جميعها تقريباً ورد فيها كلمتي التفكر والتذكر ، أما الآيات التي لم تذكر فيها كلمه من الكلمتين المذكورتين فقد ذكر فيها اللب ، وبالتالي فإننا نستطيع أن نستخلص من ذلك أن العقل في الإنسان يرتبط فيه التفكر والتذكر ارتباطاً تاماً ، فهاتين الصفتين هنا من اختصاص العقل بصفة خاصة ، بينما نجد أن كلمة التعقل من الفعل الثلاثي (عَقَلَ) مشتركه بين العقل والقلب مع أنها على الأغلب من صفات العقل وترتبط فيه ، إلا أنها احياناً ترتبط في القلب وليس في العقل ، وعند ارتباطها في القلب فهي خاصة في الإيمان .

لماذا خاطبت الآيات الكريمة المذكورة أصحاب العقول ؟ إن السبب في ذلك هو أن العقل مناط التكليف من الإنسان ، وبه يستطيع أن يعلم الأشياء ويدركها ، ويستطيع بواسطته معرف الخطأ من الصواب ، ويستطيع بواسطته أيضاً أن يضع القوانين والقواعد ، ويستطيع بواسطته الاكتشاف والتقدم والتطور ، فلم نصل إلى هذا التقدم والتطور العلمي والتكنولوجي وغزو الفضاء واختراع الطائرة والكمبيوتر وإجراء العمليات الجراحية المعقدة وغيرها من الأمور إلا بواسطة العقل . لاحظ أن اغلب الآيات التي ورد فيها ذكر الألباب تعتمد على منطق العقل كآية القصاص مثلاً ، وكذلك الآيات الدالة على وجود الله تعالى وقدرته ، كتعاقب الليل والنهار ، وتعاقب الفصول ، وحركة الكواكب ، وارتفاع السماء بغير عمد فهذه كلها نعتمد فيها على العقل الذي يؤكد لنا وجود مبدعٍ ومنضم لهذا الكون ، ومع ذلك فإننا إذا قمنا باستعراض القرآن الكريم فسوف نجد آيات كثيرة تتحدث عن القلوب وليس عن العقول ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

[الشعراء: ٨٨ – ٨٩] ، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الصافات: ٨٣ – ٨٤] وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾[غافر: ٣٥] ، وقال تعالى﴿ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴾[ق: ٣٣] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾[ق: ٣٧]. الذكرى في الآية الكريمة من سورة ق تختص بالعقل ولكن تلك الذكرى أو ذلك العقل لا يمكن أن يستفيد صاحبه إلا إذا كان له قلب ، وليس أي قلب وذلك لأن للجميع قلوب ، إنما المقصود هو قلب سليم يقبل الحكمة ويملأه الإيمان .

وقال تعالى﴿ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ ﴾[البقرة: ٩٧] وقال تعالى ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴾[الشعراء: ١٩٣ – ١٩٤]، وقال تعالى﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ ﴾[الشورى: ٢٤]، وقال تعالى﴿ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦] وقال تعالى﴿ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾[الكهف: ٢٨] وقال تعالى﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ ﴾[الجاثية: ٢٣] وقال تعالى﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ ﴾[التغابن: ١١] وقال تعالى﴿ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا ﴾[القصص: ١٠] وقال تعالى﴿ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ ﴾[البقرة: ٢٦٠] وقال تعالى﴿ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥١] ، وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠١] ، وقال تعالى: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ [التوبة: ١١٧] ، وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[يونس: ٧٤] ، وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [الحجر: ١٢] ، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] وقال تعالى﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢] ، وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[الروم: ٥٩] ، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾[محمد: ٢٤] وقال تعالى﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي

﴿ قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٤] وقال تعالى﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةً ﴾[البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ ﴾ [البقرة: ٢٢٥] وقال تعالى: ﴿ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ﴾[النازعات: ٨] ،وقال تعالى: ﴿ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]وقال تعالى﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ ﴾[الأنفال: ١٠] وقال تعالى﴿ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ ﴾[الأنفال: ٧٠] وقال تعالى﴿ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ ﴾[الأحزاب: ٥] وقال تعالى﴿ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ ﴾[الأحزاب: ٥٣]، وقال تعالى ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾[الحجرات: ٧] نلاحظ من خلال الآية الكريمة سالفة الذكر أن الله سبحانه وتعالى يحبب الايمان للقلب وليس للدماغ، وقال تعالى﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ ﴾[آل عمران: ٨]. وقال تعالى﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[الحشر: ١٠] وقال تعالى﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ ﴾[البقرة: ١٠] وقال تعالى﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ﴾[آل عمران: ٧].

إذا أمعنا النظر في الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر القلوب فسوف نلاحظ أن الإيمان مقترن بالقلب وليس بالعقل ، وسوف نلاحظ أيضاً الصفات التي وردت كالطبع ، والختم ، والخشية ، والسلامة ، والإنابة ، والطمأنينة ، والغفلة ، والزيغ ، والهداية ، والتقوى ، والتدبر، والفسوق، والخوف، واللين، والطهر، والعمى كلها صفات للقلب بصفة خاصة، وذلك لأن هذه الصفات كلها تبع للإيمان ، والإيمان يعتمد على القلب وليس على العقل، ولكن بشرط صلاحية العقل وذلك لأن فاقد العقل يفقد الأهلية مع فقدان العقل .

أما بالنسبة لفقه الايمانيات فقد ربطه رب العزة سبحانه وتعالى بالقلب أيضاً وليس بالعقل قال تعالى﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾[الأعراف: ١٧٩] وقال تعالى﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾[التوبة: ٨٧] وقال تعالى﴿ صَرَفَ ٱللَّهُ

﴿ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٧] وقال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٣] وقال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الأنعام: ٢٥] وقال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الكهف: ٥٧] لاحظ كيف ربط رب العزة سبحانه وتعالى الفقه والتفقه في الآيات الكريمة المذكورة في القلوب وليس بالعقول ، والسبب في ذلك أن الفقه الذي عنته الآيات هو فقه الدين والإيمان، والإيمان أمر من اختصاص القلوب وليس من اختصاص العقول أما التعقل فهو أمر من اختصاص العقل وهي صفة تغلب على العقل ولكنها وردت في آية من آيات القرآن الكريم مرتبطة بالقلب وليس بالعقل في قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦] .

ففي هذه الآية الكريمة ربط رب العزة سبحانه وتعالى التعقل في القلوب ولم يربطه بالعقول كما هو الغالب في القرآن الكريم ، وكذلك ربط سبحانه وتعالى العمى في القلوب ولم يربطه في الأبصار ، أما السبب في ربط التعقل في الآية الكريمة في القلب فذلك لأن المقصود فيه هو تعقل الإيمان بالذات ، ذلك لأن الإيمان يختص بالقلب وليس بالعقل كما ذكرت سابقاً. ويقول تعالى في آية أخرى ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[الأحقاف: ٢٦].

هذه الآية الكريمة تدل على أن أصحاب هذه الصفات هم عقلاء ، وربما علماء بمقياس أهل الدنيا ولكنهم ليسوا كذلك بمقياس رب العزة سبحانه وتعالى ، فعقولهم وأبصارهم وأسماعهم موجودة فهم يبصرون الأشياء ، ويسمعون الأصوات ، وقلوبهم تنبض وتقوم بوظيفتها العضوية ، فهي كحواس وأعضاء قادرة على القيام بالوظائف العضوية لكنها غير قادرة على القيام بالوظائف الروحانية والإيمانية لعدم وجود العقل الفطري لدى صاحبها . تلك الآيات التي ذكرتها آنفاً ركزت على القلب وجعلته مدار

الحديث وربطت به التقوى مره ، والإيمان أخرى ، وبقية الصفات الخاصة بالقلب ، ثم ربطت به الفقه وربطت به أيضاً التعقل احياناً ، فما هو السر في ذلك ؟ .

إن السر في ذلك عظيم وعميق وذلك لأن العقل لا يختص بالمؤمنين دون غيرهم بل أعطاه الله تعالى للناس عامة برهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم ، طائعهم وعاصيهم ، فالمؤمن يعي ويفكر بعقله وكذلك الأمر بالنسبة للكافر ، المؤمن قد يصنع ويبتكر ويبدع ويتقن ، والكافر قد يكون أكثر ابداعاً وأعظم عقلاً وأكثر اتقاناً . لو أتينا على سبيل المثال بعالمين يعملأن في نفس المجال واخترنا احدهما مؤمن والآخر كافر وحاولنا أن يكون هذان الشخصان بنفس المستوى من الذكاء والقدرات العقلية ، فما هو السبب الذي جعل احدهما مؤمن والآخر كافر ملحد ؟ [1] هل هو العقل ؟ والجواب بالطبع لا لأن كلاهما يتمتع بنفس المستوى من العقل والذكاء ، إذن لا بد أن يكون هناك أمر آخر غير العقل ، لأنه لو كان العقل وحده هو المقياس لكان بالضرورة أن يتساوى أصحاب المستوى الواحد من العقل والذكاء للوصول إلى نفس الحقائق ، من هنا نستطيع أن نقول أن الله سبحانه وتعالى ميز ما بين البشر وغيرهم من المخلوقات الغير مكلفه بالعقول ، بينما ميز ما بين البشر أنفسهم

---

(١) قد يقول قائل إن السبب في ذلك هو نشوء كل منهما في بيئة مختلفة عن الآخر مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" وأقول هنا اجل أن للبيئة اكبر الأثر على الإنسان وعلى أفكاره ومعتقداته ، ولكن إذا ما بلغ الإنسان سن الرشد أصبح قادراً بل أصبح واجبٌ عليه أن يبحث عن الحقيقة المجردة المطلقة بعيداً عن تأثير الآخرين لأن الإنسان يصبح مسؤولاً عن نفسه وبالذات إذا كان ذلك الإنسان من أهل العلم ، لأنه في مثل هذه الحالة لا يصبح ليس فقط مطالباً بالوصول إلى الحقيقة بل ويجب عليه إيصالها للآخرين كما هو الأمر بالنسبة لإبراهيم عليه السلام ، فرغم انه ولد وترعرع في كنف والد ومجتمع كافر إلا أن ذلك لم يثنيه عليه السلام من استخدام عقله واستغلال عقله الفطري للوصول إلى الحق .

بالقلوب ، فأعطى للمؤمنين قلوب سليمة بينما أعطى الكفار قلوب سقيمة ، ولم يجعل السلامة والسقم في القلب عضوياً إنما جعله في الجوهر ، وخير دليل على ذلك من كتاب رب العزة سبحانه وتعالى﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الشعراء: ٨٨ – ٨٩] وقوله تعالى﴿ ۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الصافات: ٨٣ – ٨٤] .

هاتان الآيتان دليل قاطع على أن هناك من البشر من يأتون الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بقلوب سليمة ، وما دام أن هناك من يأتي يوم القيامة بقلب سليم فلا بد أن يكون بالمقابل من يأتي الله بقلب سقيم ، ويدل على ذلك أيضاً بعض من حديث صحيح عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ انه قال : " ألا وان لكل ملك حمى ، ألا وان حمى الله محارمه ، ألا وان في الجسد مضغه ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله : ألا وهي القلب "[1] .

لاحظ كيف ربط رسول الله ﷺفي الحديث الشريف صلاح الجسد وفساده بصلاح أو فساد القلب ، فالحديث الشريف يجعل مقياس الصلاح والفساد تابع للقلب وليس للعقل، بل وجعل صلاح وفساد الجسد كاملاً بما فيه العقل تابع لحالة القلب ، والصلاح والفساد والسلامة والسقم هنا ليست عضوية كما سبق وذكرت ، إنما هي جوهرية وخاصة في الإيمان فقط وليس في عامة الأمور ، فليس معنى أن يكون القلب والعقل بل والجسد بشكل عام فاسد أن صاحبه غير عاقل وغير صحيح الجسم لا فقد يكون صاحبه ذكياً مفكراً صانعاً مبدعاً مكتشفاً وعالماً من علماء الدنيا ومع ذلك لا يوجد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان وليس له صلة مع الله اطلاقاً ، ومثله مهما برع وأبدع في علوم الدنيا إلا انه فاسد القلب والعقل معاً بل وفاسد الجوارح أيضاً ، لذلك فان فساد الإنسان وصلاحه مرتبط بقلبه لا بعقله . من هنا نستطيع أن ندرك أن العقل ليس وحده الذي يتحكم بمصير الإنسان وإنما

---

(١) متفق عليه ، رياض الصالحين ص٢٢٣ ح٥٨٨ .

يشاركه بل ويحكمه في ذلك القلب ، ولكن حتى يكون للقلب دور فلا بد من وجود العقل واقصد به هنا (الدماغ) ، وهنا يطرأ سؤال وهو ما هو واجب العقل ومتى يكون دوره ؟

والجواب على ذلك هو أن العقل هو الذي يقرر العلم العام (العلم المادي) فبحسب قدرات العقل وذكائه وسعة إطلاعه يستطيع الإبداع والتفكير والاختراع وبما يتماشى مع المنطق البشري وقواعد القياس العام لدى البشر ، فيميز بين الخطأ والصواب ، والممكن وغير الممكن ، وبحسب المنطق والقواعد العامة . أما القلب فهو إما قلب سليم صالح وإما قلب سقيم فاسد وبناء على ذلك الصلاح والفساد يقوم القلب بتوجيه العقل ، فواجب العقل هو التفكر والتذكر ، أما واجب القلب فهو التدبر ، فالعقل نستخدمه للماديات ، للممكن وغير الممكن أما القلب فتفقهه وتعقله يكون بالإيمانيات لا بالماديات ، أي أننا نستطيع أن نقول أن القلب هو وعاء الدين والايمان والعقل وعاء العلم والدليل على ذلك هو أننا لو إستعرضنا المعجزات التي أعطاها رب العزة سبحانه وتعالى لأنبيائه الكرام ، ولو استعرضنا الغيبيات والقدرات الربانية ، ولو استعرضنا الروحانيات لوجدناها جميعاً خارج نطاق العقل . هذه كلها تسمى معجزات أو قدرات ربانية وترتبط جميعها بمقياس القلب وليس بمقياس العقل لأنها اصلاً خارج نطاق القدرات أو الإمكانيات العقلية .

ومثال على تلك القدرات التي تخرج عن نطاق العقل وقواعده ، عصى تتحول إلى أفعى ، رجل ينفخ في الميت فيعيد إليه الحياة ، بشر يصنع طيراً من الطين فينفخ فيه فيصبح طيراً ، عصى يضرب بها البحر فيقف ماء البحر كالجدار رغم سيولته ودون تجمد ويصبح فيه ممرات ، صخره تنفتق عن ناقة ، شيخان عجوزان ، المرأة عاقر والرجل طاعن في السن ينجبان طفلاً ، أنثى تنجب من غير زوج ، رجل يلقى في نار عظيمة ثم يخرج منها معافى دون أن يصاب بأذى ، رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب يؤتى جوامع الكلم ويعجز بقدراته اللغوية وفصاحته فطاحل اللغة وأهل الشعر والكلام ، والكثير الكثير من المعجزات والقدرات جميعها لا يستطيع العقل إدراكها أو تقبلها أو تعليلها ، ويقف العقل مبهوراً أمامها لا

يستطيع لها تفسيراً وهنا يأتي دور القلب ، فإذا كان القلب صالحاً عزى تلك القدرات والمعجزات إلى قدرة الله تعالى القادر على كل شيء وأيقن برسالة الأنبياء وصدقهم وبقدرة الله وعظمته ، ذلك الإله العظيم الذي لا يحتاج سبحانه إلى أسباب ومسببات للإيجاد لأن مقاليد الأمور جميعها بيده ، وبيده سبحانه تسبيب الأسباب ، أما إذا كان القلب فاسداً استمر العقل في السيطرة والتحليل ، وبما أن العقل لم يستطع التفسير والتعليل انتقل إلى إيجاد المبررات وهي كثيرة فيقال ساحر ، ويقال شاعر ، ويقال مجنون ، ومره ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[الزخرف: ٢٣] . وأخرى ﴿ هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾[الأنبياء: ٣] . ومره ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] . ومره ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾[الفرقان: ٤٢] . وأخرى ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[الصافات: ١٥] . وكثيرة هي الآيات التي تبين أراء وأقوال أصحاب القلوب السقيمة.

إن من اكبر الأدلة على مكانة القلب من الإنسان هي قصة فرعون عندما تبع موسى عليه السلام ومن معه من بني إسرائيل إلى أن اضطرهم فرعون إلى شاطئ البحر ، وهنا يأتي الأمر ممن بيده مقاليد كل شيء ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ [الشعراء: ٦٣] يأمر الله سبحانه وتعالى موسى أن يضرب بعصاه البحر ويضرب موسى وينشق البحر عن إثنى عشر طريقاً بين جدران الماء ، يتحول البحر إلى طرق وممرات بقدرة الله تعالى ويسلك موسى ومن معه من بني إسرائيل تلك الممرات ويرى فرعون ذلك الأمر بأم عينيه وهنا تأتي اللحظة الحاسمة ، هنا يأتي دور العقل والقلب . أدرك عقل فرعون أن البحر قد انشق وان هناك بشر يسيرون عبر الممرات التي فتحت في البحر ، وعرض فرعون الأمر على عقله ، وبالمقاييس المادية المعتادة فكما سار أولئك النفر عبر تلك الممرات أستطيع أنا ومن معي أيضاً أن نسير عبرها وندركهم ، هذا هو الأمر الذي استخلصه العقل المادي ، وهو بالنسبة للقياس من الناحية المادية قياس صحيح من هذه الزاوية بالنسبة للعقل المادي ولكنه مقياس خاطئ إذا ما

قيس في مقياس العقل الفطري الذي لم يكن موجوداً أصلاً لدى فرعون عليه لعنة الله ولو كان ذلك القلب صالحاً لأدرك أن حدوث هذا الأمر بحد ذاته ليس منطقياً بالمقياس العقلي المادي، ويدل عليه ما ورد في نفس القصة والذي يؤكد بدوره على أن التمايز بين البشر هو في القلوب وليس في العقول وهو ما حدث مع سحرة فرعون عندما ألقي موسى عليه السلام عصاه فانقلبت إلى أفعى وابتلعت عصي وحبال الذين جمعهم فرعون لمحاججة موسى عليه السلام ، فعندما رأى السحرة ذلك الموقف أدركوا بعقولهم المادية أن ما يحدث هو أمر خارق للعادة يتعدى نطاق السحر وهو دليل على معجزة موسى عليه السلام ، ولأنهم يملكون عقولاً فطرية سليمة في قلوبهم آمنوا بالله تعالى وسجدت له جوارحهم رغم علمهم ما كان ينتظرهم من بطش فرعون وجبروته .

ولو كانت عقولهم الفطرية سقيمة كما هو شأن فرعون لعللوا ما رأوه شأنهم في ذلك شأن فرعون ولقالوا مثل قوله : إن سحر موسى أشد من سحرهم وأن معلمه أقول من معلمهم وما إلى ذلك ، فلماذا لم يقس فرعون عليه لعنة الله الأمر من منطلق أن ما يحدث هو معجزة عظيمة ودليل على صدق موسى عليه السلام كما فعل السحرة ؟ السبب في ذلك أن القلب فاسد ومريض وفطرته ليست سليمة ولو كانت سليمة لانتهى الأمر عند هذه المعجزة وربما عند قبلها من المعجزات ولكن فساد القلب هو الذي أدى إلى ذلك الغرور والإصرار على العناد والطغيان ، ولأن القلب سقيم وفاسد لم يستطع أن يغير من قناعات العقل المادية ، ولو أن القلب كان صالحاً وسليم الفطرة لأدرك بفطرته تلك أن انشقاق البحر بحد ذاته معجزه ودليل على قدرة غير عاديه تخرج عن حدود المعقول والمألوف، ولسيطر على عقل صاحبه لأن الأمر في هذه الحاله أصبح خارجاً عن قدرات العقل وإدراكه وهذا هو تعقل القلوب وفقهها وإبصارها ، ففي مثل هذه الحالات يتميز القلب الصالح عن القلب الفاسد فيدرك القلب الصالح السليم أن ما يحدث هو معجزه ودليل قدرة ربانية ، أما القلب السقيم فهو غير قابل حتى لأن يخفق فزعاً في مثل هذه المواقف ،وكذلك هو الأمر بالنسبة لكنعان بن نوح عندما دعاه والده نوح عليه السلام لركوب السفينة فأبى

لأنه كان يعتمد على عقله المادي وقاس الأمر كالتالي كما بين ذلك رب العزة سبحانه وتعالى في كتابه الكريم على لسان ذلك الشقي قال تعالى ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ ﴾[هود: ٤٣].

هذا المقياس هو مقياس مادي صحيح في الحالات العادية لأنه إذا ما أشتد هطول المطر فسوف أصعد إلى الجبال ، ومعلوم أن الماء سيغمر المناطق المنخفضة ولن يصل إلى قمم الجبال ويغمرها ولكنه بذلك ألغى العقل الفطري لأن الأمر ليس معتاداً ولأن هطول الماء لم يكن عادياً إنما كان عذاباً لمن كفر بالله وأنكر رسالة نوح عليه السلام، وكانت النتيجة أن كنعان بن نوح لم تفلح عبقريته الفذة هذه المرة لأنه ألغى عقله الفطري واعتمد على العقل المادي .

لذلك كله نستطيع أن ندرك أن التمييز بين البشر هو بالقلوب وليس بالعقول ، فقلب المؤمن مبصر سليم صالح ، وقلب الكافر أعمى سقيم فاسد . من هنا قلت أن للإنسان عقلين أحدهما الدماغ وهو (العقل المادي) والآخر عقل القلب وهو (العقل الفطري) والله تعالى أعلم وهو ولي التوفيق .

خلاصة باب العلاقة ما بين العقل والقلب

في الختام أردت أن ألخص هذا الباب للقارئ الكريم كما يلي :

١. يتكون الإنسان من مجموعة من الجوارح ، درة تلك الجوارح هو الدماغ (العقل المادي) الذي ميز به المولى سبحانه وتعالى الجن والإنس عن سائر المخلوقات الأخرى .

٢. للإنسان عقلين أحدهما (العقل المادي) وهو ما يعرف بالدماغ ومركزه الرأس وهو عقل مفطور على العلم والمعرفة والمنطق ولا فرق فيه ما بين مؤمن أو كافر ، فقد منحه الله سبحانه وتعالى للبشر عامة وميزهم به عن سائر المخلوقات الأخرى الغير مكلفة ، وكذلك ميز به الجن كذلك ، أي أنه ميز به سبحانه وتعالى الإنس والجن عما سواهما من المخلوقات الأخرى وبسببه كان التكليف لكل من الجن والإنس ونتيجة لهذا التمييز سيحاسب الجن والإنس يوم القيامة كل على عمله والنتيجة إما إلى الجنة وإما إلى النار .

٣. أعطى الله سبحانه وتعالى لكل من الجن والإنس (عقل فطري) ومركزه القلب وهو عقل مفطور على الإيمان ودليله الحديث الشريف " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " . هذا العقل الفطري ميز به سبحانه وتعالى المؤمنين من الجن والإنس عن غيرهم من نفس السلالة .

٤. يعتمد العقل الفطري على العقل المادي من ناحية التكليف ، ويعتمد العقل المادي على العقل الفطري من ناحية التوجيه، فإذا ما وجد العقل المادي فعندها يصبح الإنسان مكلفاً بالتكاليف الشرعية التي فرضها الله سبحانه وتعالى ، فإذا ما وجد

العقل المادي فإنه يتأثر بالعقل الفطري ، بحيث يكون مصير الإنسان الأخروي مرتبطاً بعقله الفطري والذي بدوره يحدد مصير الإنسان من ناحية الإيمان أو الكفر.

٥. ليس بالضرورة أن يكون كل صاحب عقل مادي يحمل عقلاً فطرياً ، فقد يكون الإنسان ذكياً وربما عالماً بمقياس البشر ومع ذلك يكون فاقداً تماماً لعقل الفطرة ، وإذا ما فقد عقل الفطرة فعندها تكون النتيجة إن ذلك الإنسان سيكون ملحداً لا يؤمن بالله تعالى مهما برع في أي علم من العلوم .

٦. العقل هو وعاءُ العلم بينما القلب وعاء الإيمان ، وعليه فإن الفطرة التي فطر الله سبحانه وتعالى الناس عليها والتي وردت في قوله تعالى (فطرة الله التي فطر الناس عليها) والتي وردت أيضاً في الحديث الشريف ((كل مولود يولد على الفطرة)) مفادها أن قلوب جميع البشر خلقت على الفطرة أي (الإسلام) ثم يأتي بعد ذلك دور الأهل والبيئة التي يتواجد فيها الإنسان فإما أن تنمي تلك الفطرة وإما أن تستبدلها .

باب في تصوركيفية عذاب القبر

إن تصور عذاب القبر يحتاج إلى تفسير وإيضاح لأنه ليس سهلاً على العقل البشري أن يتخيل هذا الأمر بالمفهوم المتعارف عليه لدى البشر في الدنيا ، من حيث أن الميت يوسع له في قبره مد بصره ، ويكون قبره روضه من رياض الجنة أو حفره من حفر النار ، ومن حيث أن الإنسان ينعم في قبره أو يعذب ، فالعقل لا يستطيع استيعاب الكيفية التي تتم بها هذه الأمور، وهذا ما أدى بالبعض إلى إنكار عذاب القبر ، وذلك أن العقول تقتصر عن تفسير هذا الأمر تفسيراً مادياً لأن هذا الأمر إذا ما تم عرضه على منطق العقل الذي يفسر الأمور تبعاً للممكن وغير الممكن ، وتبعاً للمحتمل والمستحيل ، وتبعاً للماديات والإمكانيات التي يستطيع العقل أن يتصورها . هذا العقل الذي برع بالعلم واستطاع أن يوصل الإنسان إلى هذا التقدم الهائل استطاع أن يصل إلى ذلك كله بفضل الله أولاً وبتسخير ما وهب الله إلى هذا العقل من وعي وإدراك لدراسة المادة وتحليلها والبناء عليها .

وهنا يجب أن نعترف أن العقل الذي وهبنا إياه رب العزة سبحانه وتعالى هو عقل قاصر عن استيعاب الغيبيات والمعجزات وإدراكها بالشكل الذي استطاع به استيعاب الماديات والوصول بواسطتها إلى هذا التقدم والتطور في جميع المجالات . من ضمن تلك الأمور التي لا يستطيع العقل القطع والجزم بها هو عذاب القبر ، لأن عذاب القبر وما يحدث للميت في قبره هو أمر ليس مادياً كغيره من الأمور العلمية لذلك ينتهي فيه دور العقل في التحليل والتفسير قياساً على الأمور المعهودة في الدنيا ، وهنا يأتي دور الإيمان بالله تعالى ، وهنا يأتي دور القلب المفطور على الإيمان . فانا مثلاً لا يمكن لي أن أتصور بعقلي أن القبر يضيق ويتسع على صاحبه ، ولا أستطيع أن أتصور أن الميت المدفون في التراب يستطيع أن يجلس في قبره عندما يأتيه الملكان للسؤال ، ولا أستطيع أن أدرك أن هذا الجسد الخالي من الحياة يستطيع أن يشعر بالعذاب أو النعيم وأمور أخرى كثيرة تتعلق بهذا الأمر لا يستطيع عقلي أن

يستسيغها وذلك لأنها تخـرج عن نطاق العقل والمنطق والماديات التي أقيس عليها . فان أنا اعتمدت على قدراتي العقلية فقط فإنني بالتالي سوف أنكر عذاب القبر ولن أصدقه إطلاقاً وذلك لأنني منطقياً لا أستطيع تفسيره ، وهنا يأتي دور القلب الذي تحدثت عنه سابقاً .

ترى لو عرضنا أمر عذاب القبر على اعلم أهل الأرض في هذا الزمان وكان ذلك العالم غير مؤمن بالله تعالى فهل سيسلم بأمر عذاب القبر ؟ الجواب على ذلك قطعاً هو النفي وذلك أن منطق العقل لا يقبله إطلاقاً ، أما بالنسبة لي فانا أؤمن بعذاب القبر إيماناً قاطعاً ، ليس لأنني أستطيع إدراكه بعقلي ولكن السبب في إيماني بعذاب القبر هو أن رسول الله ﷺ قد ذكره في الأحاديث النبوية الشريفة ، وعليه فان الذي جعلني أؤمن بعذاب القبر هو قلبي وليس عقلي ، هذه المضغه التي فطرت على الإيمان بالله تعالى هي التي جعلتني اوؤمن بعذاب القبر ولا انفيه ، من هنا فان عذاب القبر بالنسبة لي أمر مسلم به ثابت غير مردود وسأفسره بحسب مقتضى العقل في ما يمكن تفسيره عقلياُ ومنطقياً ، أما فيما يتعدى حدود العقل وقدراته من حيث أن الميت يجلس في قبره ويأتيه الملكان للسؤال ، ويوسع له في قبره ، ويكون قبره روضة من رياض الجنة ، أو يضيق عليه قبره ويكون حفرة من حفر النار ، وغير ذلك من الأمور التي لا يستطيع العقل أن يتصورها بالمقياس الدنيوي الذي اعتاده فأقول فيها إن الأمر بالنسبة لهذه الأمور هو أن دار البرزخ تختلف اختلافاً كلياً عن دار الدنيا ، فمقاييس دار الدنيا تختلف عن مقاييس دار البرزخ ، وما لا يمكن في دار الدنيا يكون ممكناً في دار البرزخ بقدرة الله تعالى الذي بيده مقاليد السماوات والأرض والله ولي التوفيق ، هذا الباب مرتبط بما قبله من ناحية مفهومي للنفس، لذلك فلا بد قبل عرضه من استرجاع بعض ما يتعلق بالنفس لحصول الفائدة.

قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ هذه الآيات الكريمة من سورة الشمس تحدثت عن النفس ، وورود لفظة النفس في الآية الكريمة تحتمل أن يكون المقصود فيها الإنسان بعناصره جميعها ، وتحتمل أيضاً

أن المراد بها هو العنصر الثالث من عناصر الإنسان وهو ناتج سريان الروح في الجسد وهو العرض الذي يشكل العنصر الثالث للإنسان ، فالنفس هي من صنع الله سبحانه وتعالى ، وتحدث بقدرته وإرادته ، فهو سبحـانه الـذي سواهـا وأنتجها بإبداعه وإرادته وحكمته ، فإذا ما نام الإنسان خرجت نفسه وبقيت روحه وجسده ، فما يراه الإنسان في نومه يكون سببه غياب النفس وانعدامها ، أما في حالة وجود النفس فلا يستطيع الإنسان أن يرى حلماً أو رؤيا لأنه يكون في حالة يقضه ، ولا يمكن للإنسان في اليقضه أن يرى أحلاماً ، وما يحدث للإنسان في حالة اليقضه أحياناً هو تخيلات يتخيلها بواسطة عقله ، أما الأحلام فلا بد لحدوثها من النوم وغياب النفس وهذا وحده الذي يفسر لنا منطقياً عذاب القبر الذي أثبتته الأحاديث النبوية الشريفة ، وذلك أن النائم مسلوب النفس ، وكذلك فان الإنسان إذا مات خرجت نفسه وتلاشت وانعدمت أي لم تعد موجودة في الأصل لأنها كما سبق وذكرت عبارة عن ناتج اتحاد الروح مع الجسد .

وبما أن الروح قد فارقت الجسد في حالة الموت فهذا يؤدي بالضرورة إلى انعدام ماهية النفس تماماً كأننا نقوم بفصل التيار عن المصباح الكهربائي ، وهذا الفصل يؤدي إلى انعدام الضوء ، وكذلك هو الأمر إذا ما خرجت روح الإنسان من جسده انعدمت نفسه ولم تعد موجودة أصلاً وبالتالي يبقى المكونان أو العنصران الآخران من الإنسان وهما الروح والجسد وهما الجوهران الأساسيان في الإنسان ، أما النفس والحياة فهما كما سبق وذكرت عرضان ناتجان عن اتحاد الروح والجسد ، ومعلوم بعد الموت أن الجسد يبدأ بالتلاشي بعد فترة من الزمن لأنه يتحلل ولا يبقى منه إلا عجب الذنب والذي منه يركب الإنسان كما ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : ((كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب . منه خلق وفيه يركب)) [١] .

---

(١) مسلم ١٨/ ٧٣ .

وبالتالي فان الجسد يعود إلى أصله الأول وهو التراب ، وكما وضحت سابقاً فان الذي يجعل الإنسان في حالة الحياة الطبيعية (اليقضه) يشعر بالبوادر جميعها الألم والفرح والحزن والشهوة ....الخ من الأحاسيس هو النفس ولكن بواسطة أعضاء الجسد نفسها ، لأن الأعضاء جميعها تحتاج إلى إشباع حاجاتها وغذائها فإذا ما زود كل عضو بحاجته شعر الجسم بإشباع حاجة الأعضاء بواسطة النفس ، وإذا ما نقص عن العضو حاجته شعر الجسم بهذا النقص أيضاً بواسطة النفس وبالتالي فان الإنسان إذا مات وخرجت روحه من جسده لم يعد الجسد بجميع أعضاءه يشعر بشيء البته ، ذلك لأن المقياس الذي كان يعتمده الجسد أثناء الحياة وهو النفس قد ذهب ولم يعد موجوداً وبالتالي فان الميت كجثة يفقد جميع الأحاسيس بفقدان النفس وفقدان الحياة أيضاً .

وذلك لأن خروج الروح يتبعه فقدان عرضيها معاً وهما النفس والحياة وعليه فان الجسد بعد خروج الروح منه يصبح جثة خاليه من أي نوع من أنواع الأحاسيس لأنه فقد النفس والحياة وبالتالي يصبح عبارة عن كتله لا تحس ولا تشعر ولا تتحرك وبالتالي فان التغيرات التي تجري له بعد الموت كالضمور والتحلل لا يتم الشعور بها نتيجة خروج الروح وزوال النفس وعليه فلا يمكن أن يكون العذاب للجسد إطلاقاً وذلك لأن الجسد قد فقد الحياة بفقدان الروح مما أدى إلى فقدان المجس الذي كان يستشعر به الأشياء والأحوال وهو النفس وبالتالي فان تحلل الجسد ينفي وقوع العذاب عليه ولو كان العذاب على الجسد لكان تقطيع الجسد عذاباً وتحلله عذاباً ولكن ذلك الأمر غير وارد وكما يقولون (ما ضر الشاة سلخها بعد ذبحها) وبالتالي فان خروج الروح هو نهاية المطاف بالنسبة للجسد ، وعليه فان التمثيل بجثة الميت لا يكون لها أي نوع من التأثير على الميت ، لأن الميت بمجرد خروج روحه لا يشعر جسده بما يحدث له بعد ذلك من تقطيع أو تشويه أو تمثيل .[1]

(١) التمثيل هو تشويه جسد الإنسان بعد موته ، وهنا قد يسأل سائل عن السبب في تحريم التمثيل في الأموات والسبب برأيي ليس لأن فيه تأثير على الميت إنما يكمن السبب في تحريم التمثيل الذي نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك لما يمثله أولاً من استهانة بكرامة الإنسان الذي كرمه رب العزة

بهذا التحليل أكون قد بينت أن العذاب لا يمكن أن يقع على الجسد اطلاقاً خصوصاً وان الجسد بعد فترة من الزمن سوف يتلاشى ، فإذا كان العذاب سيكون على الجسد فذلك يعني انه سينتهي بتحلل الجسد ، وهذا يبعد إمكانية أن يكون العذاب على الجسد ، وأيضاً لا يمكن أن يقع العذاب على النفس لأن النفس كما سبق وذكرت تتلاشى ولا يعود لها وجود أصلاً بمجرد خروج الروح ، وبالتالي لا يبقى إلا العنصر الثالث من عناصر تكوين الإنسان ، وذلك العنصر هو الروح ، وعليه فان العذاب يكون للروح وحدها دون الجسد ، وهنا لا بد من وقفه للمراجعة والتحليل عن كيفية عذاب الروح ونعيمها دون الجسد .

((إن عذاب الروح ونعيمها أثناء الحياة تابع لعذاب ونعيم الجسد وبواسطة النفس، وبما أن النفس والجسد قد انتهى أمرهما في حالة الموت ولم يتبقى إلا الروح فلا بد إذاً أن يكون العذاب والنعيم لها وحدها فكيف يكون ذلك ؟ إن عذاب القبر يقع فقط على الروح ولكنه ليس عذاباً مادياً بالمفهوم الذي قد يتبادر للعقل ، فكما أن الإنسان كان يحلم في الدنيا فيرى حلماً مفزعاً في نومه وإذا ما أفاق وجد مرارة ذلك الحلم ووجد نفسه مفزوعاً منه فكذلك هو عذاب القبر ، فهو عذاب ولكنه عذاب تحسه الروح كما يتراءى للنائم ، ويستمر ذلك العذاب أو النعيم للروح تماماً كما يتراءى للنائم الذي يرى حلماً مفزعاً . فتراه أثناء نومه قد انتقل بأحاسيسه جميعها وأثناء نومه إلى العيش مع ذلك الحلم وكأنه يحصل له في الواقع المعاش ، ويستمر تفاعله مع ذلك الحلم إلى أن ينتهي حلمه أو إلى أن يفيق من نومه فزعاً مرعوباً .

أما بالنسبة للنعيم فان الإنسان إذا ما رأى في منامه رؤيا جميله فتراه يعيش أيضاً أثناء نومه بأحاسيسه وبجميع كيانه سعادة ما يراه في نومه كأنه حقيقة واقعه ولا تنتهي سعادته تلك إلا بانتهاء ما كان يراه في نومه أو أن يفيق من نومه سعيداً لما رأى ، وحتى عندما يفيق

سبحانه وتعالى في محكم التنزيل بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ ، فهذا هو السبب الأول فالنهي عن التمثيل وتحريمه ، فلا يجوز للبشر الاستهانة بما كرم رب العزة سبحانه وتعالى ، أما السبب الثاني فلما يمثله التمثيل من استهانة وتجريح لمشاعر الأحياء ، وقد يكون هناك أسباب أخرى لا تخطر على بالي ، ولكن هذان السببان هما من أهم الأسباب التي نهى لأجلها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التمثيل بالأموات.

من نومه تراه يتمنى لو طال حلمه واستمر بعكس الفزع الذي تراه إذا ما أفاق من نومه حمد الله انه كان يحلم ، وكذلك هو الميت فإذا ما مات الإنسان كان عذابه أو نعيمه يتراءى للروح كما كان يتراءى لها الحلم ، ولكن بالنسبة للميت يستمر الأمر طيلة فترة البرزخ وحسب أعماله إما في النعيم وإما في العـذاب إلى أن يأتي يوم البعث والنشور ، فالمعذب إذا ما انشره الله تعالى من قبره وعاد جسداً وروحاً ونفساً وجد مرارة ما كانت تعانيه روحه طيلة فترة رقوده في البرزخ كالنائم الذي كان يرى في نومه ما يفزعه فإذا ما أفاق وجد مرارة ما رأى في نومه ، فتراه يفيق مرعوباً قلقاً خائفاً يتصبب عرقاً كأنما كان يعيش الحلم واقعاً ، وكذلك هو الميت الذي كان يعذب في قبره ، فإذا ما أحياه الله تعالى وجد مرارة ما كانت تشعر به روحه وتعانيه أثناء موته ورقوده في القبر وكأنه كان واقعاً معاشاً ، فتراه يخرج من قبره وهو يعاني شدة ما كانت تلقى روحه في فترة البرزخ . أما المؤمن فهو كذلك إذا ما انشره الله تعالى من قبره وجد سعادة ونشوة ما كانت تشعر به روحه أثناء موته . هذا هو فقط الذي يفسر لنا عذاب ونعيم القبر ، فالعذاب والنعيم في القبر هو كما يتراءى للنائم تماماً ، فإذا ما أفاق النائم وجد آثار ما كان يراه في نومه ، وكذلك هو الميت فإذا ما انشره الله تعالى من قبره وجد آثار ما كانت تعانيه روحه أثناء موته)) [1] .

إن من اكبر الأدلة على تشابه الميت والنائم قوله تعالى في سورة يس ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[يس: ٥٢] هذا التساؤل للأموات بعد انتشارهم من القبور يبين بوضوح صفتهم في القبور كأنما كانوا نائمين ثم قاموا من نومهم ، من هنا نستطيع أن نشبه الموت في النوم ، وقد ورد تشبيه ذلك كثيراً في القرآن الكريم وكذلك في السنة الشريفة ، أما في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

---

(١) إن ما قدمته آنفاً داخل الأقواس بشكل خاص والتحليل الذي قدمته بهذا البـاب بشـكل عـام هـو رأي وتحليل شخصي أعتقده ولا أجزم به ، فإن أخطئت فمن نفسي واسـتغفر الله تعـالى وأتـوب إليـه وإن أصبت فبفضلٍ من المولى سبحانه وتعالى قد هداني إليه ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨] .

تَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٠] .

في هذه الآية الكريمة من سورة المؤمنون نلاحظ الطباق في قوله تعالى (يحيي ويميت) والطباق أيضاً بين (الليل والنهار) ونستطيع أيضاً أن نلمح المقابلة في الآية الكريمة ما بين (يحيي ويميت) وما بين (الليل والنهار) فهناك مقابله ما بين الحياة والنهار والموت والليل حيث جعل سبحانه وتعالى النهار للكسب والعمل وهو يمثل الحركة والتي هي نوع من أنواع الحياة وبالمقابل الليل للنوم والذي يمثل السكون كنوع من أنواع الموت أما في الآية الكريمة من سورة يس فقد صورت لنا حال المبعوث من قبره كحال المبعوث من نومه ، وفي الآية الكريمة من سورة الزمر فقد شبه رب العزة سبحانه وتعالى توفي النفس في حالة النوم كتوفيها في حالة الموت ، أما في الآية الكريمة من سورة الأنعام فقد أطلق سبحانه وتعالى الوفاة على النوم كما أطلقها على الموت . أما في السنة المطهره فقد ورد عن رسول الله ﷺ قال " لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ".

فالتشبيه وارد ما بين الموت والنوم في القرآن الكريم وفي السنة النبوية ، هذا التشبيه يؤكد لنا أن هناك أمر مشترك ما بين الموت والنوم ، والحقيقة المعلومة هي أن النوم شقيق الموت . من هنا أريد أن أطلق على النوم انه موت تثبيتي وان أطلق على الموت انه نوم تفكيكي إذا صح التعبير . أما ما قصدته بالموت التثبيتي فهو التشابه التام ما بين النائم والميت باستثناء ثبوت العنصرين الرئيسين معاً في حالة النوم وهما الروح والجسد ، أما ما قصدته بالنوم التفكيكي هو التشابه التام ما بين الميت والنائم باستثناء تفكك العنصران الرئيسيان في حالة الموت ، وذلك أن النائم مسلوب النفس والميت كذلك أما الفارق الوحيد ما بين النائم والميت هو أن النائم تبقى روحه في جسده مما يؤدي إلى وجود الحياة في جسده ، مما يساعده على التنفس والتقلب ، بينما تفارق روح الميت جسده مما يؤدي إلى انعدام الحياة في الجسد والذي بدوره يؤدي إلى تلف الأعضاء والله تعالى اعلم .

لماذا أطلق العذاب على القبر ؟ إن ما ورد عن رسول الله ﷺ هو عذاب القبر وليس عذاب الروح مثلاً أو عذاب الموت ، أو عذاب البرزخ ، أو عذاب الدار الثانية ، فلماذا ورد عذاب القبر بالذات ؟ أما جواب هذا السؤال فله أكثر من محور ومنها : إن ما يعقله الناس

هو هذا الجسد فهو الشيء الوحيد الظاهر الملموس المحسوس المعروف والمتعارف عليه من جميع البشر مؤمنهم وكافرهم ، فالإنسان كان يعرف خلال حياته بجسده لا بروحه فإذا ما مات الإنسان انتقل ذلك الجسد المعروف الواضح من دار الدنيا إلى الدار الثانية وهي القبر أو دار البرزخ هذا هو المحور الأول ، أما المحور الثاني فلأن الروح كانت تساكن ذلك الجسد ومن غير المعقول أن الروح إذا خرجت من الجسد انقطعت عنه انقطاعاً كلياً ، فلا بد أن تكون هناك صلة وثيقة ما بين الروح وما بين ذلك المكان الذي يحوي مسكنها الذي هو الجسد الذي كانت تسكنه قبل الموت ، أما المحور الثالث فهو أن الروح إذا ما خرجت من الجسد فلا بد لها من مستقر تكون فيه إلى أن يأذن الله تعالى بردها إلى الجسد الذي كانت تسكنه في الحياة الدنيا ، وذلك عندما ينفخ في الصور نفخة الإحياء .

أما عن مستقر الروح عند خروجها من الجسد إلى ذلك الوقت المعلوم فقد ذكر ابن القيم في كتابه الروح ما يلي : (عن الإمام احمد في رواية ابنه عبدالله : أرواح المؤمنين في الجنة ، وأرواح الكفار في النار . وروى الطبري : ((أرواح المؤمنين في أجوف طير خضر ، تعلق في أشجار الجنة حتى يردها الله إلى أجسادها يوم القيامة)) . وقال صفوان بن عمرو : سألت عامر ابن عبدالله – أبا اليمان – هل لأنفس المؤمنين مجتمع ؟ فقال : إن الأرض التي يقول الله تعالى فيها : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ، قال : هي الأرض التي تجتمع إليها أرواح المؤمنين حتى يكون البعث .

وقالوا : هي الأرض التي يورثها الله المؤمنين في الدنيا . وقال كعب : أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة ، وأرواح الكفار في سجين في الأرض السابعة ، تحت جند إبليس . وقالت طائفة : أرواح المؤمنين ببئر زمزم ، وأرواح الكفار ببئر برهوت . وقال سلمان الفارسي " أرواح المؤمنين في برزخ من الأرض ، تذهب حيث شاءت ، وأرواح الكفار في سجين " وفي لفظ عنه : " نسمة المؤمن تذهب في الأرض حيث شاءت . وقالت طائفة : أرواح المؤمنين عن يمين آدم ، وأرواح الكفار عن شماله . وقال ابن حزم : أنها ترجع إلى البرزخ الذي رآها فيه رسول الله ﷺ ليلة اسري به عند سماء الدنيا . أرواح أهل السعادة عن يمين آدم، وأرواح أهل الشقاوة عن يساره ، ويعجل أرواح الأنبياء والشهداء إلى الجنة . وقد ذكر هذا أيضاً عن اسحق بن راهويه . وقال أبو عمر بن عبد البر : " أرواح الشهداء في الجنة ، وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم " واستدل على ذلك في شرح حديث ابن عمر :

((إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وان كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال له : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إلى يوم القيامة)) رواه البخاري ومسلم . وعن مجاهد انه قال : الأرواح على أفنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارق ذلك والله اعلم . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : " لما أصيب إخوانكم – يعني يوم احد – جعل الله أرواحهم في أجوف طير خضر ، ترد انهار الجنة وتأكل ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب ، مدلاة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ إخواننا أنا أحياء في الجنة ، نرزق ، لئلا ينكلوا [1] عن الحرب ويزهدوا في الجهاد ؟ " قال : " فقال الله عز وجل : أنا ابلغهم عنكم : فانزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] .

والحديث في مسند احمد وسنن أبي داوود . وفي حديث ابن مسعود عندما سئل عن هذه الآية قال : أرواحهم في جوف طير خضر تسرح في الجنة في أيها شاءت ، ثم تأوي إلى القناديل ، فاطلع إليهم ربك إطلاعه ، فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : وأي شيء نشتهي ونحن نسرح في الجنة حيث شئنا . ففعل لهم ذلك ثلاث مرات ، فلما راءوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا ، قالوا : يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة ، تركوا " والحديث في صحيح مسلم) [2] ، وهنا لا بد لي أن أتحدث عن الآية الكريمة من سورة آل عمران ألا وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾.

هذه الآية الكريمة تؤكد حياة الشهداء في سبيل الله . فما هو نوع تلك الحياة ؟ وهل هي الحياة المعهودة في الدنيا أم هي حياة أخرى ؟ والجواب على ذلك أن تلك الحياة ليست هي تلك الحياة المعهودة في الدنيا قطعاً وذلك لأن أجساد الشهداء في الأرض وفي قبورهم ، وبالتالي فلا يمكن أن ينتقل الشهداء بعد الشهادة من حالة الموت الذي ذاقته أجسادهم إلى الحياة وبالذات بالنسبة للجسد وإنما الحياة التي عنتها الآية الكريمة هي حياة الأرواح لا حياة

---

(١) يقال نكل عن الأمر إذا امتنع عنه .

(٢) مقتطفات من كتاب الروح لابن القيم ص ١٣٤ – ١٤٢ .

الأجساد وذلك أن الأجساد مدفونة في التراب علماً أن أجساد الشهداء مميزه عن أجساد غيرهم من الأموات وذلك لما ورد عن رسول الله ﷺ ((إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء)) [١] ، فإذا قارنا بين أجساد الأنبياء والشهداء وأجساد غيرهم من البشر لا نستطيع أن نقول عنها أنها حيه بالمفهوم المتعارف عليه ، إنما هي أجساد سليمة ناجية [٢] ،من العطب ، وعليه فان الله سبحانه وتعالى قد نجى أجساد الأنبياء والشهداء من العطب ، ومع ذلك فنجاة الأجساد ليست هي الحياة التي عنتها الآية الكريم ، وإنما الحياة للأرواح وليس للأجساد . وهذا يؤكد ما ذكرته في صفحات هذا الكتاب من أن الروح إذا فارقت الجسد ماتت ، لكن موتها ليس بالزوال والتلاشي مما يؤكد أن الروح تموت بالمفارقة وتحيى بالمساكنه ، أي أنها إذا فارقت الجسد ماتت ، وإذا ما سكنت في جسد عادت للحياة .

ويؤكد ذلك حديث رسول الله ﷺ الذي رواه الإمام مسلم (عن مسروق قال: سألنا عبدالله بن مسعود عن هذه الآية : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ ، قال : أما إنا قد سألنا عن ذلك . فقال : ((أرواحهم في جوف طير خضر . لها قناديل معلقه بالعرش . تسرح من الجنة حيث شاءت . ثم تأوي إلى تلك القناديل . فاطلع إليهم ربهم إطلاعه . فقال : هل تشتهون شيئا ؟ قالوا : أي شيء نشتهي ؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا . ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا ، قالوا يا رب ! نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى . فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا)) سبق تخريج الحديث .

---

(١) رواه أبو داوود بإسناد صحيح رياض الصالحين ص٤١٣ ح١٣٩٩ .

(٢) وردت نجاة البدن بحق فرعون في قوله تعالى﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾ مع الفارق التكريمي ما بين النجاتين وذلك لأن نجاة أجساد الأنبياء والشهداء تكريماً لهم من الله تعالى ، أما نجاة فرعون فليكون آية وعبره للناس ، وهذه الآية الكريمة تدل أيضاً على أن الحياة التي وردت في الآية الكريمة من سورة آل عمران ليست للبدن وإنما للروح لأنه لو كانت للبدن لكانت الآية بحق فرعون (اليوم نحيك ببدنك) وليس (ننجيك) وهذا يدل أن الحياة تكون للروح والنجاة تكون للبدن .

قال النووي رحمه الله في شرحه للحديث ما يلي : قوله ﷺ في الشهداء : (أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقه بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى القناديل) فيه بيان أن الجنة مخلوقة موجودة وهو مذهب أهل السنة وهي التي اهبط منها آدم وهي التي ينعم فيها المؤمنون في الآخرة هذا إجماع أهل السنة . وقالت المعتزله وطائفة من المبتدعه وغيرهم أنها ليست موجودة وإنما توجد بعد البعث في القيامة . قالوا : والجنة التي اخرج منها آدم غيرها ، وظواهر القرآن والسنة تدل لمذهب أهل الحق . وفيه إثبات مجازات الأموات بالثواب والعقاب قبل القيامة . قال القاضي : وفيه أن الأرواح باقية لا تفنى فينعم المحسن ويعذب المسيء وقد جاء به القرآن والآثار وهو مذهب أهل السنة خلافاً لطائفه من المبتدعه . قالت : تفنى . قال القاضي ، وقال هنا : أرواح الشهداء .

وقال في حديث مالك : إنما نسمة المؤمن ، قال القاضي : وذكر في حديث مالك رحمه الله تعالى نسمة المؤمن . وقال : وقال هنا الشهداء لأن هذه صفتهم لقوله تعالى﴿أحياء عند ربهم يرزقون﴾ وكما فسره في هذا الحديث وأما غيرهم فإنما يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي كما جاء في حديث ابن عمر قال في آل فرعون ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً﴾. قال القاضي ، وقيل بل المراد جميع المؤمنين الذين يدخلون الجنة بغير عذاب فيدخلونها الأن بدليل عموم الحديث . وقيل بل أرواح المؤمنين على أفنية قبورهم والله اعلم . قال القاضي ، وقيل إن هذا المنعم أو المعذب من الأرواح جزء من الجسد تبقى فيه الروح وهو الذي يتألم ويعذب ويلتذ وينعم وهو الذي يقول ربي ارجعون وهو الذي يسرح في شجر الجنة وغير مستحيل أن يصور هذا الجزء طائراً أو يجعل في جوف طائر وفي قناديل تحت العرش وغير ذلك مما يريد الله عز وجل . قال القاضي : وقد اختلف الناس في الروح اختلافاً لا يكاد ينحصر وقال كثير من أرباب المعاني وعلم الباطن المتكلمين لا تعرف حقيقته ولا يصح وصفه وهو مما جهل العباد علمه واستدلوا بقوله تعالى: ﴿قُل الرُّوح مِن أَمرِ رَبِي﴾ وغلت الفلاسفة . فقالت : بعدم الروح . وقال جمهور الأطباء هو البخار اللطيف الساري في البدن . وقال كثيرون من شيوخنا : هو الحياة . وقال آخرون : هي أجسام لطيفه مشابكه للجسم يحيى بحياته أجرى الله تعالى العادة بموت الجسم عند فراقه. وقيل : هو بعض الجسم ولهذا وصف بالخروج والقبض وبلوغ الحلقوم وهذه صفة الأجسام لا المعاني . وقال بعض مقدمي

أئمتنا هو جسم لطيف متصور على صورة الإنسان داخل الجسم . وقال بعض مشايخنا وغيرهم : انه النفس الداخل والخارج . وقال آخرون : هو الدم .

هذا ما نقله القاضي والأصح عند أصحابنا أن الروح أجسام لطيفه متخللة في البدن فإذا فارقته مات . قال القاضي : واختلفوا في النفس والروح . فقيل : هنا بمعنى وهما لفظان لمسمى واحد . وقيل : إن النْفس هي النَّفس الداخل والخارج . وقيل : هي الدم . وقيل : هي الحياة والله اعلم) ، أ هـ . مسلم ١٣/ ٢٧ .

وأقول بعد أن أفوض العلم لله تعالى أن تلك الصفة المذكورة من الحياة هي صفة خاصة بالشهداء بدليل الآية القرآنية الكريمة التي تؤكد ذلك فقد خلق الله سبحانه وتعالى لأرواح الشهداء تلك الطيور واسكن فيها أرواح الشهداء ، وهذا هو الذي عنته الآية الكريمة بحياة الشهداء عند الله تعالى لأن أرواحهم ليست ميتة أو مجرده كأرواح بقية البشر إنما هي مودعه في تلك الطيور تنعم في نعيم الجنة بواسطة تلك الطيور .

وبما أنها قد ركبت في أجساد تلك الطيور فقد أعادها الله تعالى للحياة بحيث تتمتع بنعيم الجنة بتمتع تلك الطيور التي تحملها وبالتالي فقد يكون المقصود بالأحاديث التي ورد فيها (أرواح المؤمنين في أجوف طير خضر) يقصد فيها الشهداء بصفة خاصة وليس عامة المؤمنين وذلك لأنه لم ترد آية في القرآن الكريم تدل على أن المؤمنين بصفة عامة إحياء عند الله تعالى إلا تلك الآية الكريمة التي حددت الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله وهذا هو الثابت والذي اخبرنا به رب العزة سبحانه وتعالى في القرآن الكريم والمتعلق بالشهداء في سبيل الله تعالى خاصة ، وبما أن الشهداء قد اشتركوا مع الأنبياء بان الله تعالى قد حرم أجسادهم على الأرض فذلك يؤكد أن الأنبياء هم أيضاً أحياء عند الله تعالى فهم أحق من الشهداء بتلك المنزله ، أما ما جاء في الحديث الشريف من أن (أرواح المؤمنين في جوف طير خضر في الجنة) فقد يكون المعنى أرواح المؤمنين من الشهداء وليس عامة المؤمنين والله تعالى اعلم .

أما بالنسبة لبقية أرواح البشر فهي موجودة بصفتها التي خلقها الله تعالى عليها ولكنها أرواح مجرده عن مساكنها أي أنها أرواحٌ ميتة بالمفهوم الذي ذكرته سابقاً وهو مفارقتها لأجساد التي كانت تسكن فيها . وتبقى كذلك إلى أن يأذن الله تعالى بالنشور فتعاد صياغة تلك الأجساد التي أرمت وبلت ، فإذا نفخ في الصور نفخة الأحياء عادت كل روح

إلى الجسد التي كانت تسكن فيه وعاد الإنسان إلى حياته المعهودة روحاً وجسداً ونفساً للعرض والحساب .

إن العقل يكاد أن لا يدرك تفسيراً لعذاب القبر وذلك لتشعب هذا الموضوع ولو لم يرد أحاديث شريفه عن عذاب القبر لكان من الأسهل والأهون على منطق العقل أن ينفي عذاب القبر ، أما وقد وردت أحاديث تثبت عذاب القبر فيجب علينا أن نسلم بذلك . أما فيما ورد في صحيح الإمام مسلم رحمه الله من أحاديث تثبت عذاب القبر ، عن بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ((إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي . إن كان من أهل الجنة ، فمن أهل الجنة . وان كان من أهل النار ، فمن أهل النار . يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة)) [1] ، وعن زيد ابن ثابت قال : قال رسول الله ﷺ: " إن هذه الأمة تبتلى في قبورها . فلولا أن لا تدافنوا ، لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي اسمع منه " ثم قال " تعوذوا بالله من عذاب النار " قالوا : نعوذ بالله من عذاب النار . فقال : " تعوذوا بالله من عذاب القبر " قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر . قال : " تعوذوا بالله من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن " قالوا : نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن . قال : " تعوذوا بالله من فتنة الدجال " قالوا : نعوذ بالله من فتنة الدجال [2] ، وعن انس ، أن النبي ﷺ قال : " إن العبد إذا وضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، انه ليسمع قرع نعالهم " قال : "يأتيه ملكان فيقعدانه فيقولأن له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ " قال : " فأما المؤمن فيقول : اشهد انه عبد الله ورسوله " قال : " فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار . قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة "، قال نبي الله ﷺ: " فيراهما جميعاً " [3] ، وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الميت إذا وضع في قبره، انه ليسمع خفق نعالهم إذا انصرفوا"[4]، وعن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال : " ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ، قال : نزلت في عذاب القبر . فيقال له : من ربك ؟ فيقول ربي الله ونبيي محمد

(١) مسلم ١٧ / ١٦٦ .

(٢) مسلم ١٧/ ١٦٧ .

(٣) مسلم ١٧/ ١٦٧ .

(٤) مسلم ١٧/ ١٦٨ .

ﷺفذلك قوله عز وجل : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها " قال حماد (٢) : فذكر من طيب ريحها ، وذكر المسك . قال : " ويقول أهل السماء : روح طيبه جاءت من قبل الأرض . صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه ، فينطلق به إلى ربه عز وجل . ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل " قال : " وان الكافر إذا خرجت روحه – قال حماد وذكر من نتنها ، وذكر لعناً – ويقول أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض. قال فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل "قال أبو هريرة : فرد رسول الله ﷺ " ريطه (٣) كانت على أنفه ، هكذا " (٤) .

إن الواقع يؤكد أن عذاب القبر يقع على الروح ، وإذا كان هناك عذاب للجسد فلأن الجسد كما ذكر ابن القيم (يكون تبعاً للروح) هذا ما دام الجسد موجوداً لم يبلى بعد ، فإذا ما بلي الجسد وتلاشى استمر العذاب أو النعيم على الروح وحدها مجرده من أي تابع لها وذلك بالنسبة للروح يكون تماماً كالرؤيا بالنسبة للنائم ، فإذا ما أعاد الله سبحانه وتعالى الأجساد وردت إليها الأرواح وجدت الأجساد نعيم وعذاب الروح الذي كان يحدث ويترائى لها أثناء فترة البرزخ والله تعالى اعلم .

إن من اكبر الحقائق الثابتة هو الموت لأنه نهاية كل حي ، وقد أكد رب العزة سبحانه وتعالى هذه الحقيقة بقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ، وقد أكد رب العزة سبحانه وتعالى هذه الحقيقة في أكثر من سورة وأكثر من موقع في كتابه الكريم . قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ، وقال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

(١) مسلم ١٧/ ١٦٨ .

(٢) حماد بن زيد هو احد رواة الحديث .

(٣) الريطة : ثوب رقيق . وقيل هي الملائه . وكان سبب ردها على الأنف بسبب ما ذكر من نتن روح الكافر.

(٤) مسلم ١٧/ ١٦٩ .

[العنكبوت: ٥٧] ، هذه ثلاث آيات كريمات في ثلاث سور مختلفات أكدت على أن كل نفس لا بد لها من الموت ، فما هو المقصود في النفس في الآيات الكريمة ؟ وقبل الجواب على هذا السؤال سوف اذكر آيات أخرى ذكرت فيها النفس ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾[آل عمران: ١٤٥] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾[المنافقون: ١١] ، وقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الزمر: ٤٢] ، وقال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧ – ٨] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ ﴾ [النساء: ٧٩] ، وقال تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦] ، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ [طه: ٩٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ ﴾ [الزخرف: ٧١] ، وقال تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ ﴾ [النجم: ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾آل عمران: ١٥٤ .

أما جواباً على السؤال المطروح سابقاً فان المقصود في الآيات الثلاث الأولى وفي اغلب الآيات التي ذكرت النفس هو الإنسان بجميع عناصره ، أما بقية ما ذكرت من آيات فهي تحتمل الأمران وهما : الإنسان بعناصره مجتمعه ، وتحتمل أيضاً النفس منفردة وهي ناتج سريان الروح في الجسد، وإذا إستعرضنا الآيات الكريمة فسوف نلاحظ أن توفي النفس بصفتها الخاصة هو من اختصاص رب العزة سبحانه وتعالى في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الأنعام: ٦٠] ، فالأفعال المتعلقة بالنفس بصفتها الخاصة جميعها بيد الله سبحانه وتعالى وذلك لأن انفصال النفس وخروجها وعودتها بالذات في حالة النوم هو أمر من اختصاص رب العزة سبحانه وتعالى الذي خلق وسوى تلك النفس بقدرته ، وليس لأحد من الملائكة سلطان على تلك النفس بل هي بيد الله سبحانه وتعالى وحده ، لذلك جاء في القرآن الكريم قوله تعالى﴿الله يتوفى الأنفس﴾ وهذا دليل أن الروح تختلف عن النفس ، فلماذا لم تكن الآية (الله يتوفى الأرواح) ؟

السبب في ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتوفى الأنفس ، أما الأرواح فان الذي يتوفاها هو ملك الموت بدليل قوله تعالى : ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ فالمختص بقبض الأرواح هو ملك الموت ، أما المختص في قبض وتوفي الأنفس فهو الخالق المبدع سبحانه وتعالى والسبب في ذلك أن الروح شيء معلوم موجود منفرد بحد ذاته ، أي أنها جوهر قائم بنفسه ، أما النفس فهي تختلف عن الروح تماماً وذلك لأنها عرض ناتج ولسيت جوهر قائم كالروح أي أنها قدره تكوينية ابداعية أي كونها وأبدعها المولى سبحانه وتعالى القائل في محكم التنزيل ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧] لذلك فان النفس من اختصاص الذي سواها فقط وذلك لأنها ليست منفردة بحد ذاتها إنما هي قدره إبداعية ناشئة أي أنها عرض من العوارض يتكون بقدرة الله تعالى ويزول بقدرته تعالى عند النوم . واكبر دليل على ذلك انه لم يرد في القرآن الكريم عن الوفاة أثناء الليل وهي (حالة النوم) سوى آيتين فقط هما الآية الكريمة رقم (٤٣) من سورة الزمر والآية الثانية رقم (٦٠) من سورة الأنعام وهما الآيتان الوحيدتان اللاتي جاء فيهما ذكر وفاة الليل وقد نسب رب العزة سبحانه وتعالى فيهما الفعل إلى نفسه وليس لملائكته وذلك لأن أمر النفس مختلف عن أمر الجسد وأمر الروح .

وذلك لأن الجسد كما ذكرت سابقاً ارضي طيني وهو وحده موجودة منفردة أي جوهر قائم بحد ذاته أصله التراب وتطوره العظام واللحم والدم ، أما الروح فهي علوية ملكوتية من أمر الله سبحانه وتعالى لا نعلم ماهيتها مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، هذه الآية دليل على أن الروح رغم علمنا القليل عنها إلا أنها من أمر الله تعالى فهي موجودة نستطيع الإحساس بها دون إدراك ماهيتها ومع ذلك فهي وحده موجودة منفردة أي جوهر قائم منفرد بحد ذاته ، وهي من أعظم أسرار الله تعالى في خلقه وقلة علمنا عنها وعدم إدراكنا لماهيتها لا يعني أبداً عدم وجودها ولكنه يعني تفردها وتميزها وسر إعجازها ، فهي موجودة محسوسة لا يمكن إنكارها فقد وكل بها رب العزة سبحانه وتعالى ملك من الملائكة لنفخها وملك لقبضها وتكفينها والصعود بها ، وكذلك فان الإنسان إذا مات رآها عند خروجها لما جاء عن أم

سلمه قالت : دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمه وقد شق بصره [١] فأغمضه . ثم قال : " إن الروح إذا قبض تبعه البصر " [٢] ، أما النفس فأمرها يختلف عن ذلك فهي ليست منفردة كالروح أو الجسد بل هي مشتركة متولدة ناتجة ، فهي لا تنتج عن الروح وحدها ، وأيضاً لا تنتج عن الجسد وحده وإنما تتولد نتيجة إشتراكهما وإرتباطهما معاً في حالة الوعي .

من هنا نستطيع القول انه لا يوجد ملك يختص بقبض النفس وذلك لأن النفس ليست جوهر منفرد بحد ذاته وإنما هي عرض متولد عن سريان الروح داخل الجسد والقادر على قبضها وإبطال مفعولها هو الذي جعلها تحدث نتيجة العلاقة والاتصال ما بين منفردين هما الروح والجسد . أما قبض النفس من قبل الله تعالى فيكون أثناء النوم أو هو الذي يحدث عملية النوم ، أما بالنسبة للموت فان النفس تتلاشى وتزول تلقائياً بمجرد خروج الروح من الجسد ، لذلك فان الذي ينعدم من الإنسان في الموت هو النفس والحياة فبمجرد خروج الروح من الجسد تنعدم النفس وتنعدم الحياة ، ويموت الجسد تبعاً لذلك ويبلى بعد فترة من الزمن ولا يبقى منه إلا عجب الذنب والذي يركب منه الخلق يوم القيامة كما ثبت ذلك في الحديث الشريف .

وكذلك هو الأمر بالنسبة للروح فهي أي الروح تموت بمجرد خروجها من الجسد لكنها لا تبلى ولا تتلاشى ولا تنعدم بل تبقى بصفتها التي خلقها عليه رب العزة سبحانه وتعالى في مستقرها بعد الموت فإذا كان صاحب الروح شهيداً عجل الله سبحانه وتعالى روحه واسكنها في جوف الطير الخضر التي اخبر عنها رسول الله ﷺ وتلك هي حياة الشهداء التي اخبر عنها رب العزة سبحانه وتعالى في سورة آل عمران الآية (١٦٩) .

من هنا فإنني أرى أن النفس المذكورة في قوله تعالى﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ لا ينطبق على الروح مجرده عن جسدها وذلك لأنه لو انطبق على الروح وحدها فهذا يعني انه لا بد للأرواح من أن تموت وان تذوق الموت ، فإذا سلمنا بان الروح هي النفس فهذا سيؤدي بالضرورة إلى أن الروح ستموت مرة أخرى بعد خروجها من الجسد وهذا غير وارد لأن

---

(١) شق بصره : شخص عينيه .

(٢) مسلم ٦/ ١٩٧ .

تم بحمد الله

المراجع

١. القرآن العظيم.
٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي
٣. صحيح مسلم ، بشرح النووي، دار الكتب العلمية. 1995
٤. التاج الجامع. منصور علي ناصف دار إحياء التراث. 1962
٥. الفتن نعيم بن حماد ، دار الفكر. 1993
٦. رياض الصالحين، النووي ، دار الفيحاء. 1991
٧. سيرة ابن هشام ، عبدالسلام هارون، ملخص.
٨. التذكرة، القرطبي، دار الكتب العلمية. 1985
٩. المعجم الوسيط،الطبعة الثانية ، دار المعارف. 1972
١٠. المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر. 1945
١١. الفقه الميسر،احمد عيسى عاشور.
١٢. الحاوي للفتاوي، السيوطي ، المكتبة العصري. 1990
١٣. الروح لابن القيم الجوزية.

كتب صدرت للمؤلف:

- المنار في دلائل اقتراب الساعة وسر مثلث برمودا وما يغنيك عن السؤال في المهدي والمسيح والدجال
- العالم إلى أين .. أرض تحتضر وسماء لا تمطر نفطاً .
- العالم إلى أين؟! ج٢... على حافة الهاوية ٢٠١٢ بداية النهاية وحرب نووية على إيران.

تأليف : أبي عبيده راتب عبدالرحيم حسن الزغول.

الأردن – عجلون – عنجره

ت٠٧٨٨٦٠٩٦٨٢ / ٠٧٧٩٤٨٦٢٢٥

فهرس المحتويات